من: معجم الألفاظ في القرآن الكريم

دراسة معجمية لخمسة ألفاظ في القرآن الكريم

[بنى، رفع، وسع، الضحى، الحبك]

عبد المجيد بن محمد بن علي الغيلي

١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م

موقع رحى الحرف

دراسة معجمية لخمسة ألفاظ
في القرآن الكريم
(دراسة معجمية)

عبد المجيد بن محمد بن علي الغيلي

١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م

موقع رحى الحرف

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.

(ترقيم الكتاب موافق لنسخة المؤلف)

للاقتباس:

دراسة معجمية لخمسة ألفاظ في القرآن الكريم (دراسة معجمية)، عبد المجيد بن محمد الغيلي، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، منشور على موقع المؤلف: رحى الحرف، ص ...

الفهرس:

الفهرس: ٣
مقدمة: ٦
المطلب الأول: بنى: ٧
أولاً: البناء في اللغة: ٧
ثانياً: البناء في القرآن الكريم: ١١
ثالثاً: (والسماء بنيناها) ١٣
رابعاً: (ابن لي عندك بيتا) ٢٣
خامساً: (غرف مبنية) ٢٥
سادساً: (أتى الله بنيانهم) ٢٨
المطلب الثاني: رفع: ٣٠
أولاً: الرفع في اللغة: ٣٠
ثانياً: التراكيب المستخدمة في القرآن: ٣٢
ثالثاً: الرافع والرفيع: ٣٥
رابعاً: (خافضة رافعة): ٣٧
خامساً: والسقف المرفوع: ٣٩
سادساً: (رفع السماء): ٤١
سابعاً: (والعمل الصالح يرفعه) ٤٤
(١) صعود الكلم الطيب: ٤٤
(٢) رفع العمل الصالح: ٤٦
(٣) مستقر الكلام والعمل: ٤٨
ثامناً: رفع الدرجات: ٥١
(١) تقسيم المواضع: ٥١

(٢) التعليق على ما سبق: ٥٥
أ. التركيب الأول: الدلالة على التفاضل: . ٥٥
ب. التركيب الثاني: الدلالة على التفضيل ٥٥
تاسعاً: (في بيوت أذن الله أن ترفع) ٥٧
المطلب الثالث: أوسع: ٥٩
أولاً: السَّعَة والوُسْع: ٥٩
(١) السعة: ٥٩
سعة من المال: ٦٠
لينفق ذو سعة من سعته: ٦١
مراغما كثيرا وسعة: ٦١
يغن الله كلا من سعته: ٦١
(٢) الوُسع: ٦٣
لا يكلف الله نفسا إلا وسعها: ٦٣
ثانياً: وَسِع: ٦٤
وسع ربي كل شيء علما: ٦٥
ذو رحمة واسعة: ٦٦
ثالثاً: (واسع) ٦٨
رابعاً: أوسع، فهو موسع: ٧١
على الموسع قدره: ٧٢
وإنا لموسعون: ٧٣
المطلب الرابع: الضحى: ٧٦
أولاً: الضحى لغة: ٧٦
ثانياً: الضحى في استخدام القرآن الكريم: ٧٦
ثالثاً: التحقيق في مفهوم الضحى: ٧٩

وأخرج ضحاها: ٧٩
لا تظمأ فيها ولا تضحى: ٨٠
خلاصة المفهوم: ٨١
المطلب الخامس: الحبك (ذات الحبك): ٨٢
أولاً: مفهوم (الحُبُك): ٨٢
ثانياً: البنية النسيجية: ٨٥

مقدمة:

في هذا البحث أدرس مجموعة من الألفاظ في القرآن الكريم، دراسة معجمية، وهذه الألفاظ قسمان، قسم متعلق بألفاظ مسندة إلى الله سبحانه وتعالى، وهي البناء، والرفع، والإيساع، فدرستها دراسة معجمية لجميع استعمالاتها في القرآن الكريم، حتى أبين الدلالة الدقيقة لإسنادها إلى الله سبحانه وتعالى، كقوله: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}، وقوله: { وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا} . فهذه الألفاظ تأتي ضمن معجم الأفعال المسندة إلى الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم.

والقسم الثاني يتناول ألفاظاً أخرى، وهي: الضحى، والحبك، وهذه الألفاظ تعد نواة لمعجم أعمل فيه الآن، وسيرى النور بإذن الله، حين يأذن الله بتجليته لوقته.

اللهم يا من وَسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، سَعْني برحمتك، واغفرْ لي، ولا تعذبْني. اللهم يا رفيعَ الدرجات، ارفعني درجاتٍ في الدنيا والآخرة. يا من رفع السماواتِ بغير عَمَدٍ تُرَى، بَوِّئْني مِنَ الجنة غُرَفاً تجري مِنْ تحتها الأنهارُ.

عبد المجيد محمد علي الغيلي
الرياض
جمادى الثانية — ١٤٣٤هـ / أبريل ٢٠١٣م
abdmmys81@hotmail.com

المطلب الأول: بنى:

البناء: إنشاء شيء ثابت، بتأسيسه ورفعه، وذلك باستخدام مواد معينة وتشكيلها.

أولاً: البناء في اللغة:

لم أجد تعريفا للبناء في المعاجم اللغوية العربية. والمعاجم الأجنبية تقصر البناء على المفهوم المادي. في معجم ويبستر (Merriam-Webster's): (منشأة ذات سقف وجدران؛ تستخدم مكانا لمعيشة الناس أو أنشطتهم). وفي معجم ماكميلان (Macmillan): (هيكل مركب مصنوع من مواد قوية، كالحجر والخشب، له سقف وجدران). وفي ويكيبيديا: (هيكل مركب يصنعه الإنسان، ذو سقف وجدران، يكون ثابتا في مكان ما).

وإذا رجعنا إلى التراكيب العربية المستخدمة في مادة بناء، فنجد أن ثمة عناصر، تشكل مفهوم البناء، بعضها أساس، وبعضها غير أساس، فالعناصر الأساس هي[1]:

(الأول): وجود مواد أساسية تمثل مادة البناء، سواء كانت طبيعية، كالحجر والطين، أو غير طبيعية، كالزجاج.

و(الثاني): المعالجة، حيث تعالج تلك المواد بخلطها وتشكيلها.

---

[1] أفدت في مادة هذا المدخل، فيما يتعلق بعناصر البناء ومراحله، من المهندس/ مصطفى محمد الغيلي. كتب الله ذلك في ميزان حسناته.

و(الثالث): التركيب؛ فالبناء شيء يتم تركيبه بعمليتين، الأولى: التأسيس، والثانية: الرفع.

و(الرابع): ثباته في المكان عادة؛ فالبناء شيء ثابت، وقولهم: بناء السفن، ينظر إلى ثباتها في الماء، فالماء هو مكان واحد لها. ومن ثم فالشيء الذي يمكن نقله (كوخ مثلا، أو البيوت التي تنقل بالتقنيات الحديثة)، لا يطلق عليه البناء إلا تجوزا؛ فالبناء المحسوس لا بد من تأسيس قواعده في المكان.

و(الخامس): الثبات في الشكل، فالبناء يأخذ شكلا ثابتا في العادة، ولا يتغير إلا بترميم أو هدم جزئي... إلخ. وهذا في بنيان البشر.

❖ ❖

وهناك عناصر غير ثابتة، وهي:

(الأول): الفاعل، فالبناء يمكن أن يقع من الإنسان أو من غيره، فالطيور تبني أعشاشها، والله سبحانه وتعالى بنى السماء.

و(الثاني): المحسوس، فالبناء قد يكون شيئا محسوسا، تراه العيون، كالبيت أو الجسر...، وقد يكون شيئا غير محسوس، كقول العرب: فلان يبني مجده، وفلان يبني الرجال، وفي الاستخدامات المعاصرة: فلان بنى نظريته على..، والبناء الاجتماعي... إلخ.

و(الثالث): الاستخدام، فهناك استخدامات متعددة للبناء، ومن غير اليسير حصرها. وفي البناء غير المحسوس تختلف الأغراض عنها

في البناء المحسوس.

وأما العنصر البشري والعنصر الطبيعي "الأرض والموارد الطبيعية"، وكذلك العنصر الفني من تخطيط وتصميم وتنفيذ وإشراف - فأنا لا أعتبرها عناصر أساس في البناء، بمفهومه العام، والمهندسون يعتبرونها عناصر أساس؛ لأن عملهم يتعلق بممارسة البناء على الأرض، ومن يقوم بالبناء هم البشر من مهندسين ومقاولين وعمال...إلخ. فهدفي هنا وضع مفهوم عام للبناء، يشمل ما يبنيه البشر وغيرهم، ويشمل ما يبنى على الأرض وما ليس على الأرض، لذلك فالعناصر الخاصة يتم تجاوزها. كذلك ما يقع عليه البناء، لا يقتصر على بنيان الإنسان، بل يشمله ويشمل بنيان غيره، فالطيور تبني، والحيوانات تبني، والله سبحانه وتعالى بنى السماء، وفي الجنة غرف مبنية.

وبناء على هذا، فيمكن تعريف البناء بأنه: (***إنشاء شيء ثابت، بتأسيسه ورفعه، وذلك باستخدام مواد معينة وتشكيلها***).

فهذا يشمل عناصر البناء الرئيسة، فالبناء: إنشاء شيء ثابت، أيا كان المنشِئ، وأياً كان المُـنشَأ، ويكون ذلك بتأسيسه ورفعه، وهذا يفرق البناء عن المصنوعات وغيرها مما يُنشَأ ولكن لا بالتأسيس والرفع، كما أن الإنشاء يكون باستخدام مواد أولية، تخلط وتشكل؛ لإنشاء شيء ثابت مؤسس مرفوع.

كما يشمل البناء المحسوس وغير المحسوس، فالبناء المحسوس أساسه: القواعد، ورفعه يكون بالجدران والسقوف. وغير المحسوس

كذلك له مواد تشكل وتؤسس وترفع، فالذي يبني مجده؛ يؤسسه شيئا فشيئا، ويرفعه، ومواد التأسيس هي المواقف والأفعال والأقوال التي يتخذها، فهو لا يبني مجدا من موقف أو فعل واحد.

أما بقية العناصر، فهي تخص بناء الإنسان، وسأتغاضى عنها في التعريف.

❖ ❖

□

ثانياً: البناء في القرآن الكريم:

جاء في القرآن الكريم، لفظ البناء: فعلاً: بنى، يبنون، اِبْنِ. ومصدرا: بناء. واسما: بنيان: (ابنوا له بنيانا). والدلالة على المفعول: (مبنية). والدلالة على الفاعل: بنّاء.

والبنيان ليس مصدرا، بل اسم، فهو لا يقول: ابنوا بناء. ويستخدم الناس اليوم الاسم من البناء: المبنى، وفي القرآن الكريم: البنيان. وقد ذكرت سبع مرات، وبينت مجموعة من عناصر البنيان:

فالبنيان هو ما يُبنَى: (فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا)، والبنيان مرصوص، أي مركب متضام مشدود بعضه إلى بعض (إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ). والبنيان مركب من أجزاء، كالقواعد والسقف، يتم معالجته بالتأسيس والرفع: (فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ). وقوله: (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ). وتدل الآية أيضا على أن قواعد البنيان تشمل الشيء المحسوس، وغيره. وقوله: (فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا)، أي مرتفعا عليهم.

والبنيان يستخدمه القرآن الكريم للإشارة إلى ما يبنيه الناس، أما ما يبنيه الله تعالى فهو بناء. ولذلك قال: (جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً)، فجعلها بناء لا بنيانا، فهي بناء يختلف عن بنيان الناس.

وقد وقع فعل البناء على: البيت: (رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا)،

والصرح: (يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا)، وآية: (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً). على اختلاف بين المفسرين في المراد بالآية، والآية هي العلامة، فيبدو أنهم كانوا يبنون في كل مكان مرتفع منارات تدلهم على الطريق، فالذم لم يقع على فعل البناء؛ ولكن على غرضه: العبث والتفاخر والركون إلى الدنيا.

والله سبحانه وتعالى: بنى السماء (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا)، (أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)، وغرف الجنة مبنية: (لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ).

واستخدم القرآن الكريم فعل التشييد في موضعين، وكلاهما مسند إلى البشر: (وَقَصْرٍ مَشِيدٍ)، (وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ).

وكذلك (عمر)، استخدمها القرآن الكريم مسندة إلى البشر، وقد وقعت على الأرض (وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا)، وعلى المساجد (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ)، ويدل استخدامه مع المساجد أيضا على عمارتها بالطاعة. وقوله تعالى: (وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ)، يرجح أنه الكعبة؛ فقد اطرد إسناد العمران في القرآن الكريم إلى الناس، ولم يقع على غيرهم.

وسأتناول أربعة أفعال متعلقة بالله سبحانه وتعالى: بناء السماء، و(ابن لي عندك بيتا)، و(غرف مبنية)، و(أتى الله بنيانهم).

❖ ❖

□

ثالثاً: (والسماء بنيناها)

أسند فعل البناء إلى الله سبحانه وتعالى واقعا على السماء، وقد جاء في خمسة مواضع فعلا (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا)، (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا)، (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)، (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)، (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا). وفي موضعين مقترنا بجعل (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً)، (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً).

فما المراد بالسماء المبنية، وما المراد بالبناء؟

أما السماء فقد بينت في بحثي: السماء والسماوات في القرآن الكريم، على أن المراد بالسماء، هي السماء الأولية التي سواها الله، ثم سوى منها السماوات السبع.

وأما البناء فسنتدبر آيات القرآن الكريم لبيان دلالته، قال تعالى: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا)، وقال: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ).

إذا نظرنا إلى عناصر عملية بناء الإنسان فهي ثلاثة: الوظيفة، والهيئة، ومراحل البناء.

الوظيفة:

كما تسمى عنصر الخدمة؛ فالمبنى يصمم لغرض معين، ووظيفة المبنى هي أول عنصر يحدد تصميم المبنى، وبناءه بعد ذلك، والعناصر اللازم توفرها فيه لتحقيق ذلك الغرض، وتلبية حاجة

مستخدميه، فبناء مسكن غير بناء مستشفى، غير بناء جراج... الخ. فوظيفة المبنى تحدد توزيع الاتجاهات والغرف والإضاءات والتهوية والحركة وغيرها.

وفي القرآن أكثر من عشرة مواضع تحدد المنحى الوظيفي للسماوات والأرض، فالله لم يخلقهما باطلا، بل خلقهما بالحق، قال تعالى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)، وقال: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)... فالله خلق السماء بالحق، لحكمة بينها في كتابه، وقد تحدثت عنها في بحث: السماء والسماوات في القرآن الكريم.

ومن تلك الحكمة أن السماوات والأرض جعلهن الله مسكنا للأحياء الذين خلقهم، في الحياة الدنيا، ثم يطويهن الله (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ)، (وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ). فهيأها الله لتكون مسكنا صالحا للساكنين، وأنشطتهم المختلفة.

الهيئة:

أي هيئة المبنى، فالمصمم يحدد هيئة المبنى: شكله، وحجمه، والمواد المستخدمة فيه، ونسبها ومقاديرها، ومدى تحقق الأمان فيه، ومدى ملاءمته مع البيئة، وفق عوامل كثيرة، منها وظيفته، ومنها عوامل بيئية، وعوامل سكنية واجتماعية وثقافية... الخ. وعليه يأخذ المبنى شكله وحجمه مسبقا، وما يتم بعد ذلك إنما هو تنفيذ البناء. فالتصميم هو أهم أعمال البناء.

وقد حدد القرآن الكريم هيئة السماء، قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)، والفَلَك الشيء المستدير الكروي، قال الطبري: (وجائز أن يكون ذلك الفلك كما قال مجاهد كحديدة الرحى، وكما ذُكر عن الحسن كطاحونة الرحى، وجائز أن يكون موجا مكفوفا، وأن يكون قطب السماء، وذلك أن الفلك في كلام العرب هو كل شيء دائر)، وقال القرطبي: (وأصل الكلمة من الدوران، ومنه فلكة المغزل، لاستدارتها. ومنه قيل: فلك ثدي المرأة تفليكا، وتفلك استدار. وفي حديث ابن مسعود: تركت فرسي كأنه يدور في فلك. كأنه لدورانه شبهه بفلك السماء الذي تدور عليه النجوم). وقال ابن تيمية: (والأفلاك مستديرة بالكتاب والسنة والإجماع؛ فإن لفظ " الفَلَك " يدل على الاستدارة، ومنه قوله تعالى "وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ"، قال ابن عباس: في فلكة كفلكة المغزل. ومنه قولهم: تَفَلّك ثدي الجارية إذا استدار). وهناك آيات أخرى تبين هذا، فصلتها في بحثي: السماء والسماوات في القرآن الكريم.

وأما الحجم، فمن ذا الذي يعلمه من البشر، وكل ما علمه البشر مما قدروه بملايين السنين الضوئية ليس إلا جزءا من السماء الدنيا. وقد قال تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)، فهو حجم غير ثابت، بل في توسع مستمر، وسأتحدث عن هذا لاحقا. والناس لا يمكنهم توسعة شيء مبني إلا بهدم أجزاء منه. أما السماء فهي بناء يتوسع باستمرار، دون الحاجة إلى هدم أو نقض.

وأما المواد المستخدمة في بناء السماء، فليس في القرآن الكريم

- والله أعلم — بيان لهذه المواد. ومقتضى بنائها أنها مبنية من مواد معينة، عرفنا بعضا وما زلنا نجهل كثيرا منها، وما عرفه الإنسان منها يظهر منتهى الدقة وروعة التوازن وجمال الوحدة في بناء لبنات هذا الكون من الذرة إلى المجرة، وحدة في مواد البناء وأنظمته وسننه، تحكمه بإحكام وإتقان، وانتظام.

مراحل البناء:

تمر مراحل البناء، بالنسبة للإنسان، بثلاث مراحل، المرحلة الأولى: دراسة جدوى المشروع، والمرحلة الثانية: إعداد المخططات والرسومات، والمرحلة الثالثة: تنفيذ المشروع.

ففي المرحلة الأولى، يتم دراسة جدوى المشروع، ودراسة الظروف البيئية والاجتماعية والثقافية، ومعرفة مدى ملائمة البناء في المنطقة، ومناسبة التكلفة... الخ.

وهذه المرحلة يقوم بها الإنسان؛ لينتقل من جهل بالشيء إلى علم به، ومن ثم يصدر حكمه عن جدوى المشروع. أما الله سبحانه وتعالى فله العلم المطلق، وله الخبرة الكاملة، وله الحكمة المثلى، هو الذي يخلق الظروف وينشئها، سبحانه وتعالى.

وأما المرحلة الثانية، فهي مرحلة التخطيط، حيث يتم إعداد المخططات والرسومات الأولية والنهائية، ويشترك في ذلك المهندس المعماري والمدني وغيرهما، بحيث يتم ضمان اشتمالها على كافة عناصر البناء: الوظيفة والخدمة (توزيع الاتجاهات والغرف والفضاءات والتهوية والحركة وغيرها)، والجمال (الألوان والمواد

والتكسيات والواجهات وشكل البناء وغيرها)، والأمان والاقتصاد (وذلك بحساب كميات المواد اللازمة لإقامة هيكل البناء الإنشائي من حديد وخرسانة وغيرها، بحيث يضمن تحقيق عنصري الأمان والاقتصاد).

وبناء السماء، يبين الله سبحانه وتعالى أنه ما خلق السماء والأرض إلا بالحق، كما تبين آيات القرآن الكريم أن السماء بنيت بدقة وإتقان وإحكام، لا مثيل له، وقد جعلها الله آمنة للساكنين، وهيأ لهم فيها كل ما يحتاجون إليه. واليوم يبين علماء الكون الحسابات المتناهية الدقة في هذا البناء، والتوازن الدقيق في نسب المواد والطاقات والقوى ووظائفها، وترابطها الوثيق بعضها ببعض...

ثم المرحلة الثالثة: التنفيذ، ويمكن توزيعها على الخطوات التالية، وهي: (أعمال ما قبل البناء)، و(التأسيس والرفع)، و(التركيب)، و(التسوية)، و(التشغيل والصيانة).

فأعمال ما قبل البناء: تشمل استكشاف التربة، ودراستها، ومعرفة مدى متانتها وتوازنها وثباتها واستقرارها، وتجهيز المكان.

وأعمال التأسيس والرفع: التأسيس إشارة إلى الجزء القاعدي من البناء، والرفع إشارة إلى الجزء العلوي منه، وتشمل: الحفر، وبناء القواعد، ثم رفع البناء العلوي من أعمدة وجدران وأسقف.

والتركيب يشمل تمديدات الخدمة، كتغذية المبنى بالماء، وتمديد خطوط الكهرباء، ومد أنابيب الغاز والماء والصرف الصحي، والعزل، وتزويد المبنى بنظام التدفئة، فالتركيب بمثابة تزويد البناء

بالأعصاب.

والتسوية، وتشمل التكسية المعمارية (وتمثل كساء العظم بالجلد)، كما تشمل إعداد الوجه الظاهر في داخل المبنى، من طلاء، وديكور، وتلميع، وصقل الأرضيات، وأعمال الزخرفة، والتزيين، والتشجير، وغيرها.

وأخيرا تشغيل المبنى، والصيانة الدورية للمبنى، والمحافظة عليه.

هذه باختصار أهم خطوات تنفيذ البناء، مع وجود كثير من التفصيلات في كل خطوة.

وسنتدبر حديث القرآن الكريم عن بناء السماء، في ضوء هذه العناصر.

بالنسبة لما قبل البناء، فإن الله سبحانه وتعالى بين أنه الذي خلق السماوات والأرض، فكانتا رتقا، أي: متضامتين ملتصقتين. ثم لما أذن فتقهما، ثم استوى إلى السماء وهي دخان، وبناها. فالله هو خالق المكان، وهو خالق كل شيء، وهو الذي خلق كل شيء مهيأ لما سيكون عليه، خلق كل شيء فقدره تقديرا.

وأما **التأسيس والرفع**، فقد تحدث القرآن الكريم أن الله بنى السماوات فكانت شدادا، (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا)، قال الزمخشري: (محكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الأزمان)، وقال ابن عطية: (ووصفها بالشدة؛ لأنه لا يسرع إليها فساد لوثاقتها). فهو بناء شديد متين وثيق، هيئ لحمل الخلائق التي لا يعلمها إلا الله سبحانه

وتعالى.

ولذلك قال تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ)، قال ابن عباس: أي: بقوة.

وقال: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ)، فهي بناء نسيجي، نسجت نسجا شديدا محكما متقنا، كالنسيج الذي شدت خيوطه بإحكام. (انظر بحثي: السماء والسماوات في القرآن الكريم).

كما تحدث القرآن الكريم عن أن الله رفع السماء بلا عمد مرئية: (والسماء رفعها)، (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا). فالناس يبنون ويحتاجون إلى وضع الأسس لحفظ المبنى من التصدع والانهيار، ولضمان ثباته على الأرض، فيضعون القواعد ويرفعون الأركان. أما الله سبحانه وتعالى، فقد رفع السماء بلا عمد مرئية، فهي محفوظة، وللكرسي دور في حفظها بإذن الله (انظر بحثي: السماء والسماوات في القرآن الكريم). والآيات التي تحدثت عن الرفع أخبرتنا عن رفع سَمكها، وأنها رفعت بغير عمد مرئية.(انظر المطلب التالي: رفع).

كما أخبر القرآن الكريم عن مرونة هذا البناء، فهو بالرغم من شدته ومتانته ووثاقته، فإنه يتوسع باستمرار، (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)، وهذا ما لا يكون في بنيان الناس، فهم لا يوسعون ما يبنون إلا بالهدم الجزئي، أما الله فيوسع بناء السماء دون الحاجة إلى هدم أجزاء من ذلك البناء. (انظر المطلب: وسع).

وأما التركيب، فالقرآن الكريم يتحدث عن أن الله جعل السماء

بناء مهيأ للساكنين، ومن ثم فقد زودت بكافة (تمديدات الخدمة)، التي يحتاجها هؤلاء الساكنون، وقد ذكر لنا القرآن شيئا منها، ممتنا علينا، واليوم يتسابق العلماء في كشوفاتهم، وكل يوم يكتشفون لنا مزيدا من هذه (التمديدات)، فمن ذلك قوله: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ)، حيث يتحدث عن الماء الذي ينزل من السماء، [ودلالة السماء هنا: الغلاف الجوي للأرض، وقد يشمل ما علاه أيضا، وهو جزء من السماء]، وقوله: (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا)، فإغطاش الليل وإخراج الضحى من السماء، هو من هذا القبيل. ولم يتحدث القرآن الكريم عن شيء كما تحدث عن هذا الأمر، وما امتن الله به على الإنسان وسخر له ما في السماوات والأرض، وتهيئة الأرض له أيضا.

وأما **التسوية**، فقد أخبرنا القرآن الكريم أنه زين السماء (الدنيا)، والسماء الدنيا هي واحدة من السماوات السبع، بمصابيح، وبالكواكب، وجعل فيها النجوم، والبروج، (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)، وتدبر قوله: (وزيناها للناظرين)؛ فزينتها للناظرين عمل مقصود، واليوم يتحدث المهندسون عن (هندسة المناظر)، أي: تزيين البناء للناظرين.

ويَرِد الحديث عن زينة السماء الدنيا، بعد الحديث عن بناء السماء الأولية، وتسويتها، ثم تسوية السماوات السبع، ثم يتحدث عن زينة السماء الدنيا، فالزينة تكون في الأخير، كما قال: (فَقَضَاهُنَّ

سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا)، وقال: (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ).

ويتصل به أيضا ما جعله الله في الأرض من زينة، نباتها وألوانها وأحياؤها، فالأرض جزء من البناء.

وأما **التشغيل**، فقد خلق الله ساكني السماوات والأرض من أحياء، بعد أن بنى لهم السماء، (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ). والقرآن الكريم يستخدم لفظ (التدبير)، قال تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)، فهو يدبر أمر المخلوقات. سبحانه وتعالى (انظر بحثي: السماء والسماوات في القرآن الكريم).

وأما الصيانة، فإن القرآن الكريم يتحدث عن أن الله بنى السماء بناء محكما، لا شقوق فيه ولا صدوع ولا فروج، (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)، وقال: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ).

و(من تفاوت) كما قال الزمخشري: (أي: من اختلاف واضطراب في الخلقة ولا تناقض، إنما هي مستوية مستقيمة. وحقيقة التفاوت: عدم التناسب، كأن بعض الشيء يفوت بعضا ولا يلائمه. ومنه قولهم: خلق متفاوت).

ومهندسو البناء (وخصوصا ناطحات السحاب) يشيدونه قويا، ويستخدمون أجود المواد التي تتحمل الأحمال الثقيلة والجهد العالي، ويجعلون أساسه متينا، وواجهاته مقاومة للتلف وتسرب الرطوبة؛ حتى يظل أطول فترة ممكنة دون صيانة. وبالرغم من ذلك فإنه يظل لمدة ما، ثم بعد ذلك تبدأ أعمال الصيانة.

والتصدع في البنيان، له ظواهر عديدة، منها: التشققات، أو تآكل المواد، أو الميلان، أو غير ذلك. أما السماء فقد وصف الله بنائها بأنه شديد؛ فلا يتصدع ولا يتشقق، وهو بناء متين محكم، يظل بإذن الله دون حاجة إلى صيانة أو إصلاح، فما فيها من تفاوت، وما لها من فطور، أو شقوق، أو صدوع. وحين يأذن الله بانتهاء الدنيا، فإن ذلك البناء كله يتفطر ويتشقق ويتصدع.

❖ ❖

☐

رابعاً: (ابن لي عندك بيتا)

هذه دعوة آسية امرأة فرعون، فقد طلبت من ربها أن يبني لها عنده بيتا في الجنة، فمن يبني هو الله سبحانه وتعالى، والمبني بيت لهذه المرأة الصالحة. قال ابن عاشور: (والظاهر أن قولها: "ابن لي عندك بيتا في الجنة" مؤذن بأن فرعون وقومه صدوها عن الإيمان به، وزينوا لها أنها إن آمنت بموسى تضيع ملكا عظيما وقصرا فخيما، أو أن فرعون وعظها بأنها إن أصرت على ذلك تقتل، فلا يكون مدفنها الهرم الذي بناه فرعون لنفسه لدفنه. ويؤيد هذا ما رواه المفسرون أن بيتها في الجنة من درة واحدة فتكون مشابهة الهرم الذي كان معدا لحفظ جثتها بعد موتها وزوجها).

ومن المقابلات أن امرأة فرعون طلبت من ربها أن يبني لها بيتا في الجنة، أما فرعون فقد طلب من وزيره هامان أن يبني له صرحا لعله يصل إلى إله موسى (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا). ولم يرد الأمر من البناء للمفرد سواهما، فشتان بين طلب وطلب.

والآية تدل على أن الله سبحانه وتعالى يبني للمؤمنين بيوتهم في الجنة، وهذا غاية الإكرام لهم، فإن المضيف إذا جاءه ضيف قام بنفسه في خدمته، وهذا غاية الكرم. والله سبحانه وتعالى، كما بنى السماء، فإنه يبني للمؤمنين بيوتهم في الجنة. فيا رب ابن لنا عندك بيوتا في الجنة.

واطرد تسمية منازل الجنة في القرآن الكريم: الغرف، كقوله: (لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)، وكقوله: (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا)، (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)، (وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ).

أما في السنة فقد سميت: بيوت، وغرف، وخيمة، وقصر. ومنها: في الصحيحين: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدرّي الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم» قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين». وفي مسلم: «ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعا، غير فريضة، إلا بنى الله له بيتا في الجنة»، وفي الصحيحين: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤ واحد مجوفة، طولها ستون ميلاً، فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضا»، وفيهما: «أدخلت الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب».

❖ ❖

□

خامساً: (غرف مبنية)

ويتصل بما سبق، أن الله يبني للمؤمنين غرفا في الجنة، قال تعالى: (لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ)، فوصف الغرف بأنها مبنية. والغرفة في اللغة العربية، هي العِلِّيّة، وهي البيت المرتفع فوق بيت آخر، فلا يطلق على البيت الذي على الأرض مباشرة غرفة، بل على البيت الذي فوقه، فمعنى الارتفاع ملحوظ فيه.

وقوله "لهم غرف من فوقها غرف"، قال الزمخشري: (علالي بعضها فوق بعض)، وقال ابن كثير: (طباق فوق طباق)، وقال ابن عاشور: (موصوفة باعتلاء غرف عليها وكل ذلك داخل في حيز لام الاختصاص، فالغرف التي فوق الغرف هي لهم أيضا لأن ما فوق البناء تابع له وهو المسمى بالهواء في اصطلاح الفقهاء. فالمعنى: لهم أطباق من الغرف).

وقوله "مبنية"، تساءل المفسرون: لماذا وصفت الغرف بأنها "مبنية"، مع أن الغرف لا تكون إلا مبنية؟

قال الزمخشري: (فإن قلت: ما معنى قوله مبنية؟ قلت: معناه - والله أعلم -: أنها بنيت بناء المنازل التي على الأرض وسويت تسويتها، تجري من تحتها الأنهار كما تجرى من تحت المنازل، من غير تفاوت بين العلو والسفل).

وقال الرازي: (فإن قيل: ما معنى قوله مبنية؟ قلنا لأن المنزل إذا بني على منزل آخر تحته كان الفوقاني أضعف بناء من التحتاني

فقوله: مبنية معناه أنه وإن كان فوق غيره لكنه في القوة والشدة مساو للمنزل الأسفل، والحاصل أن المنزل الفوقاني والتحتاني حصل في كل واحد منهما فضيلة ومنقصة، أما الفوقاني ففضيلته العلو والارتفاع ونقصانه الرخاوة والسخافة، وأما التحتاني فبالضد منه، أما منازل الجنة فإنها تكون مستجمعة لكل الفضائل وهي عالية مرتفعة وتكون في غاية القوة والشدة).

وقال ابن القيم: (فأخبر تعالى أنها غرف فوق غرف، وأنها مبنية بناء حقيقة؛ لئلا تتوهم النفوس أن ذلك تمثيل وأنه ليس هناك بناء، بل تتصور النفوس غرفا مبنية كالعلالي بعضها فوق بعض، حتى كأنها ينظر إليها عيانا. و"مبنية" صفة للغرف الأولى والثانية، أي: لهم منازل مرتفعة، وفوقها منازل أرفع منها).

وقال الشوكاني: (ومعنى مبنية أنها مبنية بناء المنازل في إحكام أساسها وقوة بنائها وإن كانت منازل الدنيا ليست بشيء بالنسبة إليها، "تجري من تحتها الأنهار"، أي: من تحت تلك الغرف، وفي ذلك كمال لبهجتها وزيادة لرونقها).

وقال ابن عاشور: (ويجوز عندي أن يكون الوصف احترازا عن نوع من الغرف تكون نحتا في الحجر في الجبال مثل غرف ثمود... ويجوز أن يكون مبنية وصفا للغرف باعتبار ما دل عليه لفظها من معنى المبني المعتلي، فيكون الوصف دالا على تمكن المعنى الموصوف، أي مبنية بناء بالغا الغاية في نوعه كقولهم: ليل أليل، وظل ظليل).

والوجه عندي في "مبنية"، أن الله يبين للمؤمنين كرامتهم عنده، فالغرف التي أعدها لهم مبنية بناء، بنيت خصيصا لهم، حتى لا يظنوا أن إعدادها لهم تم بطريقة أخرى غير البناء، كالخلق مثلا، بل أعدت لهم مبنيات.

ووجه آخر وهو أن الغرف كما ذكرت في اللغة العربية لا تطلق على البيت الذي يكون مباشرة على الأرض، بل البيت الذي فوق بيت آخر، فالآية تبين أن تلك الغرف مبنية ليست كبناء الدنيا، فبنيان الدنيا يكون على أساس وقواعد في الأرض، أما الغرف المبنية فهي مرتفعة في الجنة، دون الحاجة إلى أسس وقواعد تقوم عليها، وهذا يأخذ خيال المؤمن في تصور غرفته التي بناها الله تجري من تحتها الأنهار، غرف من فوقها غرف، مبنية، مختلفة عن أسس البناء في الدنيا. فالله الذي يرفع السماوات بغير عمد ترونها، هو الذي بنى تلك الغرف المرتفعة دون قواعد، بل تجري من تحتها الأنهار.

وأما المواد التي بنيت بها الغرف، فيبينها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني: "قلنا: الجنة ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةٌ من ذهب ولَبِنَةٌ من فضة، ومِلاطُها المسك الأذْفر، وحَصْباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتُرْبتها الزعفران. من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، ولا يبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم». ولا يصح قياسها على مواد البناء في الدنيا، كما قال به بعض المفسرين.

□

سادساً: (أتى الله بنيانهم)

قال تعالى: (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ).

وقد اختلف المفسرون في المراد بقوله (فأتى الله بنيانهم من القواعد)، وهل هو حقيقة أم تمثيل. قال الطبري: (معناه: هدم الله بنيانهم من أصله، والقواعد: جمع قاعدة، وهي الأساس. وكان بعضهم يقول: هذا مثَل للاستئصال، وإنما معناه: إن الله استأصلهم، وقال: العرب تقول ذلك إذا استؤصل الشيء). وقد أورد القرطبي العديد من تلك الأقوال. وقال ابن كثير: (أي: اجتثه من أصله، وأبطل عملهم، وأصلها كما قال تعالى: "كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله"، وقوله: "فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا"). وقال ابن عاشور: (تمثيل لحالات استئصال الأمم، فالبنيان مصدر بمعنى المفعول. أي المبني، وهو هنا مستعار للقوة والعزة والمنعة وعلو القدر... وهي تشبيه هيئة القوم الذين مكروا في المنعة، فأخذهم الله بسرعة وأزال تلك العزة، بهيئة قوم أقاموا بنيانا عظيما ذا دعائم وآووا إليه، فاستأصله الله من قواعده فخر سقف البناء دفعة على أصحابه فهلكوا جميعا).

ونلاحظ أن فعل الهدم ورد في القرآن الكريم مرة واحدة، مسندا إلى البشر: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا). فالبشر هم من يهدمون البنيان، أما الله فلا يهدم، ولكنه يأتي البنيان من القواعد،

كما في الآية.

وقد ذكرت في تعريف البناء أنه يكون محسوسا وغير محسوس، ومنه قولهم: بنى مجده، والأمم بنيانها بقوتها وعزتها ومنعتها، فهو جار على حقيقته، وليس على التمثيل، وهدم البنيان الظاهر مثله مثل هدم البنيان غير الظاهر من مجد وعزة. وعليه فالآية على ظاهرها، أن الله أتى بنيان هؤلاء القوم، فالبنيان لا يقتصر على البناء المحسوس، بل يشمله، ويشمل البناء غير المحسوس من مجد وعزة وقوة. فأتى الله كل ذلك البنيان من أساسه، فتقوضت الأركان، وخر عليهم السقف، وتهاوى البنيان.

وقد اطرد المجيء بفعل (أتى) مسندا إلى الله سبحانه وتعالى، للدلالة على استئصال شأفة الأمم، كقوله: (فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ)، (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ)، (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ).

فالتركيب اللغوي (أتى) يستخدم للدلالة على الاستئصال، كما قال المفسرون، فالله هو الذي يهلكهم بأمره، ولله جنود السماوات والأرض، وأما البنيان فهو على حقيقته، ويشمل كما ذكرت البنيان المحسوس وغير المحسوس.

المطلب الثاني: رفع:

الرفع: تحريك الشيء باتجاه الأعلى، بنقل أو إطالة أو زيادة. إما لذات الشيء أو مرتبته.

أولاً: الرفع في اللغة:

تعرف المعاجم العربية (الرفع) بأنه: خلاف الوضع، أو الخفض. وقال الراغب الأصفهاني: (الرَّفْعُ يقال تارة في الأجسام الموضوعة إذا أعليتها عن مقرّها، وتارة في البناء إذا طوّلته، وتارة في الذّكر إذا نوّهته، وتارة في المنزلة إذا شرّفتها)، فالرفع كما يعرفه الراغب: الإعلاء أو التطويل أو التنويه أو التشريف، بحسب ما يضاف إليه.

وبتتبع مفردات "الرفع" وتراكيبه في اللغة العربية، يتبين أن "الرفع" يشتمل على عنصرين أساسين، الأول: الحركة، والثاني: الاتجاه. فالرفع حركة للشيء باتجاه الأعلى. ومن ثم فحالة الشيء المرفوع السابقة تراعَى في دلالة الرفع، فالشيء المرفوع لم يكن مرفوعا قبل ذلك، أو كان أدنى من مكانه الذي رفع إليه.

وبتأمل استخدام القرآن الكريم للفظ "الرفع"، نجد أنه يستخدمه مراعيا فيه ثلاثة عناصر، الأول: الحركة، والثاني: الاتجاه، وهما المذكوران سابقا، والثالث: الفاعل الذي يقوم برفع الشيء، فلم يستخدم فعل الرفع في القرآن الكريم إلا متعديا، ويعبر عن اللازم بفعل (صعد)، كقوله: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ).

وعليه يمكن تعريف "الرفع" في القرآن الكريم بأنه: تحريك

الشيء باتجاه الأعلى. وقد يكون التحريك بنقل أو إطالة أو زيادة. وقد يكون التحريك لذات الشيء أو مرتبته. [والرفع يقابله الخفض لا الوضع، وسأتناول كلا منهما في موضعه].

فالتحريك بنقل، كقوله: (وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ)، وقوله: (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ)، (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ)، وقوله: (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ). فالتحريك بالنقل هو تحريك لذات الشيء، ونقله من مكان إلى مكان أعلى منه، ولا يبقى شيء منه في مكانه الأول.

والتحريك بإطالة، كقوله (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ)، فهو يطيل القواعد من مستوى الأساس إلى مستوى أعلى، والإطالة في حقيقتها تحريك للشيء، ولكن لا بنقله، بل بإطالته، فأصله يبقى في مكانه الأول، ولكن أعلاه هو ما يرتفع إلى مكان أعلى. ومنه رفع السماء، كقوله: (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا).

والتحريك بزيادة، كقوله: (لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ)، فالرفع هنا حركة للصوت بزيادة فيه إلى درجة أعلى مما كانت عليه. ومنه: رفع الأسعار، أي زيادتها عما كانت عليه.

وتحريك مرتبة الشيء بالتشريف، فالتشريف نقل لمرتبة المشرَّف إلى مرتبة أعلى، كما يتضمن أيضا زيادة المراتب تصاعديا، كقوله: (وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ)، (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ)، (وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ)، وقوله: (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا)، وقوله: (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)، فرفع الشخص هو رفع لذكره أيضا، وقوله: (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا)، أي بالآيات، فهو يبين استحقاق الرفع، أي أنه كان يستحق الرفع بالآيات.

وكل التعبيرات المجازية والاصطلاحية (في الرفع) تنبثق من هذه الدلالة التي ذكرناها للرفع.

❖ ❖

ثانياً: التراكيب المستخدمة في القرآن:

جاء اسما، اسم الفاعل: (رافعك إلي)، و(رافعة)، والمبالغة من اسم الفاعل: (رفيع). واسم المفعول وصفاً: (مرفوع).

أما الفعل فقد جاء بثلاثة تراكيب، هي:

1) وقوعه على مفعول واحد فقط، (**رَفَعَ السَّمَاوَاتِ**)، وحيث وقع الرفع على السماوات فهو من هذا، فالفاعل فيها هو الله، وأيضا (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ)، فالرفع هنا هو إطالة البناء إلى الأعلى.
2) وقوعه على مفعول، مقترنا بالظرف (فوق) أو حرف الجر، وله صور:
   - أ. اقترانه بالظرف (فوق)، في قوله: (وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ)، فالرفع هنا: نقل الشيء بأكمله إلى أعلى. وقوله (لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ)، فالرفع زيادة الدرجة، قياسا إلى درجة أخرى (صوت النبي).
   - ب. اقترانه بـ(إلى) للدلالة على غاية المرفوع، قوله: (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ)، (وَرَافِعُكَ إِلَيَّ)، أي: انتهاء الرفع إليه سبحانه وتعالى. والرفع هنا نقل للشيء بأكمله.
   - ج. اقترانه بـ(على)، للدلالة على الشيء الذي رفع إليه المرفوع، في قوله: (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ)، والفاعل

هنا يوسف عليه السلام. والرفع هنا نقل للمرفوع من درجة إلى درجة أخرى يبينها (على).

٣) الدلالة على التفضيل أو التفاضل، وله تركيبان:

أ. الأول: وقوعه على مفعول، والمجيء بالظرف الدال على المرتبة: درجات، مكانا...، في قوله: (وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ)، (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)، (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ) بتقديم الظرف، (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا)، فالمفعول هو الإنسان، والظرف: درجات، مكانا، يدل على التفضيل، أي تفضيل هذا المرفوع، وبيان مرتبته.

ومن الباب قوله: (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا)، وقوله: (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ).

فقوله: (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا)، أي: لرفعناه درجة بها، فحذف الظرف؛ لوضوحه من جهة، ولعدم استحقاق هذا أن ينال المرتبة، فلم ينلها الرجل، ولم يذكرها الله في الآية، فدل حذفها على عدم حصولها. والباء تبين سبب الرفع، أي رفعناه بسبب الآيات، فهي دالة على سبب استحقاقه للرفع.

وأما قوله: (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)، أي: رفعنا ذكرك درجات، واللام للتعليل، قال الرازي: (كأنه تعالى يقول لام بلام، فأنت إنما تفعل جميع الطاعات لأجلي كما قال: "إلا ليعبدون"، "أقم الصلاة

لذكري"، فأنا أيضا جميع ما أفعله لأجلك)، وذكر وجها ثانيا، وهو (أن فيها تنبيها على أن منافع الرسالة عائدة إليه عليه السلام، كأنه تعالى قال: إنما شرحنا صدرك لأجلك لا لأجلي). وقال الزمخشري للإيضاح بعد إبهام (كأنه قيل: ألم نشرح لك، ففهم أن ثم مشروحا، ثم قيل: صدرك، فأوضح ما علم مبهما، وكذلك "لك ذكرك" و"عنك وزرك").

ب. الثاني: وقوعه على مفعول، والمجيء بالظرف (فوق)، والظرف الدال على المرتبة: درجات، في قوله: (وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ) (وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ)، فهذا التركيب يدل على التفاضل والتفاوت، بخلاف التركيب السابق الذي يدل على التفضيل، أي تفضيل المرفوع، أما هنا فيدل على تفاوت مراتب المرفوعين.

□

ثالثاً: الرافع والرفيع:

ورد لفظ (رافع) في قوله: (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ)، فالرافع هو الذي يفعل الرفع، والله رافعٌ عيسى إليه، ووقع فعل الرفع من الله على: السماء، والطور، وعيسى، وإدريس، والنبيين، ورفع الذكر، ومن رفع درجاتهم، ورفع العمل الصالح. فالرافع هو الذي يرفع هذه الأشياء.

كما جاء وصف "رافعة" للواقعة (خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ). وسأتناول دلالته.

وأما الرفيع فورد في قوله: (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)، وأضيف إلى (الدرجات)، واختلف المفسرون في المراد به على قولين،

الأول: أنه عليّ الصفات، ذو مكانة علية، فالرفع بمعنى العلو، والتقدير: رفيعة درجاته، فـ(رفيع) صفة مشبهة، و(الدرجات) كما قال ابن عاشور: (مستعارة للمجد والعظمة، وجمعها إيذان بكثرة العظمات باعتبار صفات مجد الله التي لا تحصر).

والثاني: أنه رافع الدرجات، فـ(رفيع)، بمعنى: رافع، وجاء بصيغة (فعيل)؛ لإفادة المبالغة، أي: كثير رفع الدرجات. وأضيف إلى مفعوله، والدرجات، قيل: درجات الأنبياء والمؤمنين، وقيل: السماوات، وقيل: معارج الملائكة.

والذي يترجح هو القول الثاني، فقد اطرد استخدام القرآن الكريم لـ"الرفع" بملاحظة وجود فاعل الرفع، كما بينت أعلاه، ولم يرد بمعنى: العلو، وحمله على ما اطرد أولى، ثم إن دلالة الرفع لغة

تقتضي وجود رافع ومرفوع، فاستخدام "الرفع" يلاحظ فيه وجود شيء يقع عليه الرفع. فالأولى أن تكون الإضافة إلى (الدرجات) من إضافة الشيء إلى مفعوله، لا فاعله.

والمتتبع لاستخدام القرآن الكريم، يجد أن العلو يقابل السفل، ويستخدم غالبا في الوصف (مدحا أو ذما)، وأنه لا يلاحظ فيه الفاعل، فيستخدم لازما: علا يعلو علوا، ولا يستخدم متعديا: أعلى، بخلاف الرفع، الذي يلاحظ فيه الفاعل، ويستخدم متعديا.

ورفيع الدرجات، هو: من يرفع عباده درجات في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: (وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ)، (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ)، (وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ)، (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ). فرفع الدرجات الوارد في القرآن الكريم يكون لرفع درجات بعض الناس على بعض، سواء في الدنيا، أو في الآخرة، وقد قصره بعض المفسرين على الآخرة، كالبغوي، قال: (رافع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة)، ولا وجه لقصرها، فالله يرفع درجات عباده في الدنيا، كما يرفعهم في الجنة أيضا.

وعليه فـ(رفيع الدرجات)، أخص من (الرافع)؛ فالرافع هو الذي يرفع، سواء رفع الأشياء المحسوسة أو غيرها، فالله رفع السماء، ورفع الطور، ورفع عيسى، ويرفع العمل الصالح، ويرفع درجات الناس... أما الرفيع، فيختص برفع الدرجات، فيا رفيع الدرجات ارفعنا درجاتٍ في الدنيا والآخرة.

□

رابعاً: (خافضة رافعة):

قال تعالى: (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)، أي الواقعة خافضة رافعة، وقد لخص ابن عطية تفسير العلماء لقوله: خافضة رافعة، فقال: (واختلف الناس في معنى هذا الخفض والرفع في هذه الآية، فقال قتادة وعثمان بن عبد الله بن سراقة: القيامة تخفض أقواما إلى النار، وترفع أقواما إلى الجنة. وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك: الصيحة تخفض قوتها لتسمع الأدنى وترفعها لتسمع الأقصى. وقال جمهور من المتأولين: القيامة، بتفطر السماء والأرض والجبال فبانهدام هذه البنية، ترفع طائفة من الأجرام وتخفض أخرى، فكأنها عبارة عن شدة الهول والاضطراب).

وبالنظر في دلالة الرفع والخفض، فالرفع هو تحريك الشيء إلى أعلى، والخفض عكسه، ومن ثم فالمرفوع كان مخفوضا قبل ذلك، والمخفوض كان مرفوعا قبل ذلك. وبهذا نستبعد القول الثالث، ففيه الخفض (خفض الجبال التي كانت مرفوعة والأجرام)، ولكن ليس فيه الرفع. وأما القول الثاني بأنها الصيحة، فلا دلالة عليه، ولا وجه له، والقرآن الكريم يتحدث عن الصيحة والنفخ في الصور، ويبين ما يترتب عليه من الصعق والفزع، فهي ستسمع القريب والبعيد، والسياق لا يدل عليه.

أما القول الأول وهو أنها ترفع وتخفض الأقوام، فالسورة تتحدث عن الأزواج الثلاثة، وهم المقربون وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال. وتبين مراتبهم؛ فإذا وقعت الواقعة فإن أصحاب الشمال ستخفضهم إلى النار، وترفع المقربين وأصحاب اليمين إلى الجنة.

والرفع والخفض هنا حسي ومعنوي، فجهنم تحت، وهم سيلقون فيها، ويكبون كبا، والجنة فوق، وأهلها سيرفعهم الله إليها. وهذا يدل على أن أرض المحشر وسط بين الجنة والنار، فالجنة فوقها، والنار تحتها، والله عليم بمقدار المسافات بينهما، فبعد انتهاء أعمال الحساب يأتي الخفض والرفع.

وهو كذلك معنوي، فالمكرمون مرفوعون، والمعذبون مخفوضون.

كما أن الخفض والرفع يكون أيضا في الدرجات، فأهل الجنة كلهم مرفوعون، وتتفاوت مراتبهم، فالمقربون أرفع من أصحاب اليمين، وفي كلٍّ درجات متفاوتة، كما في الصحيحين: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدّرّي الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم» قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين». وكذلك أهل جهنم دركات، والعياذ بالله، فبعضهم في الدرك الأسفل وبعضهم أعلى. قال تعالى: (انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا).

□

خامساً: والسقف المرفوع:

جاء في زاد المسير لابن الجوزي: ("وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ" فيه قولان، أحدهما: أنه السماء، قاله علي رضي الله عنه والجمهور. والثاني: العرش، قاله الربيع)، وفي البحر المحيط: (قال ابن عباس: هو العرش، وهو سقف الجنة)، وقال ابن كثير: (وقال الربيع بن أنس: هو العرش يعني: أنه سقف لجميع المخلوقات).

المرفوع هو ما يرفعه غيره. والذي رجحته في بحثي: السماء والسماوات في القرآن الكريم، أن السقف المرفوع هو العرش؛ فهو سقف لكل المخلوقات، وهو مرفوع لا شيء من المخلوقات أرفع منه. فحمل السقف على العرش أولى؛ إذ هو سقف المخلوقات كلها، ولا يوجد مخلوق يسقف العرش.

فدلالة العرش في اللغة، تشتمل على ثلاثة عناصر: الارتفاع، (فهو أرفع ما في البناء)، والثاني: السقف، فهو سقف مرتفع، وليس عمودا أو جدارا مرتفعا، وإلا فلا يسمى عرشا. والثالث: التظليل، فهو يظلل ما تحته.

وفي القرآن الكريم جاء وصف المرفوع؛ لأعلى المخلوقات التي رفعها الله، وهي: السقف (وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ)، وهو العرش الذي هو أرفع المخلوقات. والصحف المكرمة (فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ)، وهو اللوح المحفوظ. وكذلك سرر الجنة وفرشها، فالله جعلها مرفوعة (فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ)، (وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ)، وهذا يقتضي أنها عالية الارتفاع على ما سواها في الجنة، ويجعل الله أهل الجنة مهيئين لبلوغ هذه الارتفاعات. وكل هذه المرفوعات (العرش واللوح

المحفوظ) هي أرفع من السماوات والأرض، وهي خارج مدى السماوات والأرض، فالعرش (على اعتبار أنه السقف)، واللوح المحفوظ كلها موجودة من قبل خلق السماوات والأرض، والجنة وما فيها يسقفها عرش الرحمن.

فحمل السقف على العرش أولى من حمله على السماء.

□

سادساً: (رفع السماء):

ورد الحديث عن رفع السماء في أربعة مواطن، في آية النازعات: (رفع سمكها)، وفي سورة الغاشية: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ). وفي سورة الرحمن: (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)، وفي سورة الرعد متحدثا عن السماوات كلها: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا). فالسماء بناء، بناها الله، فرفع سمكها، كما في النازعات.

والآيات تخبرنا عن: (رفع السماء)، و(رفع سمكها)، و(رفع السماوات بغير عمد ترونها).

أما الرفع، فكما بينته: تحريك الشيء باتجاه الأعلى، بنقل أو إطالة أو زيادة، وقد يكون ذاتا أو مرتبة. فرفع السماء هو تحريك لها بإطالة، كما ترفع قواعد البيت، ولذا قال تعالى: (رفع سَمْكَها)، فبدأت بناء منخفضا، ثم رفعها الله فأطالها، وجعلها بناء عظيما (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً). كما أن رفع السماء يعني الزيادة في حجمها، وتوسعتها، كما قال تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)، فالسماء كانت في بدء أمرها جرما صغيرا، فرفعها الله بزيادة حجمها، ومع زيادة الحجم كانت الإطالة أيضا. كما أن رفع السماء يتعلق بالمرتبة أيضا، فالسماء مرفوعة والأرض موضوعة، كما قال تعالى: (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ).

(رفع سمكها) - فما السَّمْك؟

فسر بعض المفسرين "السَّمْك" بالسقف، وفسره بعضهم بـ(غلظ السقف)، إلا أن المعنى الأدق له ليس السقف، بل هو كما في تهذيب اللغة: (مَا سمكْتَ بِهِ حَائِطا أَو سقفاً)، وقال الفراء: (كل شيء حمل شيئا من البناء أو غيره فهو سَمْك)، والعرب تسمى الأعمدة التي تحمل الخباء وترفعه: المِسْماكُ. وتقول العرب: طويل السَّمْك: إذا كان الشيء مرتفع القامة. وما أجمل ما قاله الإمام الرازي في تفسيره: (واعلم أن امتداد الشيء إذا أخذ من أعلاه إلى أسفله سمي عُمْقا، وإذا أخذ من أسفله إلى أعلاه سمي سَمْكا).

فالسَّمْك، هي الجوانب التي تمتد من أسفل البناء إلى أعلاه، ورفعها يقتضي ارتفاع البناء، وإذا كان السمك مرفوعا فإن السقف سيكون مرفوعا أيضا، فقوله (رفع سمكها)، أي رفع امتداد البناء حتى سقفها.

(بغير عمد ترونها)

وأما الشيء الذي رفعت به، فيبينه قوله تعالى: (اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)، فهو قد رفعها (كما رفع السماوات كلها بعد ذلك) بغير عمد مرئية، والوصف (ترونها) في قوله (بغير عمد ترونها) معتبر في النفي كما يقر ذلك أهل اللغة، فالمعنى: بعمد لا نراها، فهو لم ينف العمد وإلا قال (بغير عمد) واكتفى بذلك، ولكنه نفى رؤيتنا لها، كما تقول: زيد ليس برجل نزيه، فأنت تنفي النزاهة لا الرجولة، فالمعنى: بغير عمد مرئية، أي فهي عمد غير مرئية. ومثله قوله تعالى: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ

عَمَدٍ تَرَوْنَهَا). وقد قال بهذا التأويل - كما في الطبري - ابن عباس ومجاهد وقتادة، وغيرهم من أئمة التفسير بعد ذلك.

وهذا كما قال تعالى: (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا)، أي: لا يثقله حفظهما بأمر الله سبحانه وتعالى. وسأتحدث عن الآية عند الحديث عن الكرسي. وهو كقوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ). وكذلك قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا).

□

سابعاً: (والعمل الصالح يرفعه)

قال تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ).

اختلف المفسرون في قوله: (والعمل الصالح يرفعه)، واختلافهم في عائد الضميرين، من الفاعل ومن المفعول في (يرفعه)، بعضهم قال: المرفوع هو العمل الصالح، والفاعل: الله، والمعنى: الله يرفع العمل الصالح، أي يتقبله، وقال بعضهم: الفاعل: الكلم الطيب، أي: الكلم الطيب يرفع العمل الصالح، وفسروا الكلم الطيب بالتوحيد الذي لا يقبل العمل إلا به. وبعضهم قال: العمل هو الفاعل والكلم هو المفعول، أي: العمل الصالح يرفع الكلم الطيب. يمكن الرجوع إلى تفسير القرطبي ففيه عرض مبسوط لهذه الأقوال ومناقشتها.

❖ ❖

والمتدبر للآية يجد أن الآية تفرق بين نوعين من عبادة الإنسان: الكلم، والعمل، ومع التفريق بينهما، فقد اختلف وصفهما: الكلم الطيب، والعمل الصالح، واختلفت طبيعة حركتهما: صعود الكلم الطيب، ورفع العمل الصالح. فالعمل الصالح هو المرفوع لا شيء سواه، وحركته إلى فوق تقابل حركة الكلم الطيب.

(١) صعود الكلم الطيب:

ورد الفعل (صعِد يصْعَد) في هذا الموطن فقط، فالصعود هو علو الشيء إلى مكان عالٍ، ويقترن بما يصعد من ذاته غالبا، أما الرفع

فيقترن بما يرفعه غيره، ولم يرد في القرآن الكريم إلا واقعا من فاعل على مفعول، كما سبق بيانه. فتقول: صعدتُ إلى الجبل، ولا تقول: ارتفعت إلى الجبل، إلا إذا رفعك شيء آخر.

فصعود الكلم الطيب يعني أن فيه قدرة ذاتية على الصعود بنفسه، والكلم هو صوت، والصوت هو موجات تتحرك متذبذبة في الأوساط المادية، ولا تنتشر في الفراغ، ومن ثم فصعود الكلم الطيب ليس مجرد كناية عن القبول كما قال المفسرون، بل هو صعود حقيقي، وتدل الآية على أن كلام الإنسان إذا كان طيبا فإن حركة ذبذباته تكون صاعدة، حتى تصل إلى الله سبحانه وتعالى، فهي لا تفنى ولا تنتهي، بل هي محفوظة. أما إذا كان كلام الإنسان غير طيب، فإن حركة ذبذباته تكون هابطة، حتى تصل أسفل سافلين، وتكون محفوظة يجدها الإنسان في يوم ما.

ويفهم من الآية أيضا، أنه لا يوجد فراغ بين الأرض والسماوات، فما بينهما هو وسط مملوء بالمادة والطاقة، وعليه يظل الصوت الطيب صاعدا إلى الله، محفوظا في سجل، ويجده الإنسان يوما ما.

وتبين الآية أيضا أن حركة الأصوات تختلف عن حركة الملائكة أو الروح أو حتى الإنسان في الوسط بين الأرض والسماء، فالكلم الطيب حركته صاعدة، أما الملائكة أو الروح فحركتهم عروج، لا صعود، والعروج هو الصعود ولكن ليس باستقامة، بل بخط متعرج. كما قال تعالى: (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ)، (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ)، (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ

يَعْرُجُونَ).

والقرآن الكريم يضفي صفة "الطيب" على القول، أو الكلمة، في مقابل صفة "الخبيث"، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ)، وقال تعالى: (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ)، وقال تعالى: (فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً).

❖ ❖

(٢) رفع العمل الصالح:

وأما قوله (والعمل الصالح يرفعه). فالرفع كما تقدم، هو (تحريك الشيء باتجاه الأعلى، وقد يكون التحريك بنقل أو إطالة أو زيادة. وقد يكون التحريك لذات الشيء أو مرتبته). فالعمل الصالح هو المرفوع، وحركته تقابل حركة صعود الكلم الطيب، وصعود الكلم الطيب ذاتي، كما تقدم، أما العمل الصالح فالرافع له هو الله، فهو يقابل الضمير في قوله (إليه يصعد)، أي: إلى الله يصعد الكلم الطيب، والله يرفع العمل الصالح.

وقد فسر المفسرون رفع العمل الصالح بالقبول، إلا أن الرفع في حقيقته تحريك لذات الشيء أو مرتبته تجاه الأعلى، فالآية دليل واضح على أن العمل الصالح شيء يرفعه الله، ونحن لا نعلم كنه هذا الشيء، ولا نعلم حقيقته، وكيف يكون رفعه، إلا أن الآية تدل على أن الله يرفع العمل الصالح، وسأتحدث في النقطة التالية أين

مستقر العمل الصالح المرفوع.

ومن أبجديات الفيزياء أن أي حركة تحدث اهتزازات، تنتقل في الوسط المادي، وقد وصل اليوم علماء الفيزياء إلى نتائج دقيقة في قياس الحركة، وقياس سرعتها، وتحليل الحركة التي تمّت، وقياس اهتزازها، ورسم ذبذباتها. كما أن التسجيل المرئي يصور الحركات ويوثقها، ويمكن من استرجاعها. فالعمل شيء، والله سبحانه وتعالى يخبرنا أن الإنسان سيرى عمله رأي العين، قال تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)، فنحن نحمل الرؤية على رؤية العين، ولا داعي لحملها على معنى آخر، وسأورد أدلة أخرى تبين أن العمل مثل القول، له وجود، والإنسان سيجده يوما ما.

ورفع العمل الصالح يكون بنقله إلى عليين، وحفظه هناك، كما يكون الرفع أيضا بالزيادة، والنماء والبركة، فالله يبارك في العمل الصالح وينميه، والرفع كما سبق القول يكون بالزيادة. قال تعالى: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)، وقال: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، وقال: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ)، (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً)، (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا)... وكما في الحديث: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه، كما يربي

أحدكم فُلُوَّهُ، حتى تكون مثل الجبل».

❖ ❖

(٣) مستقر الكلام والعمل:

هناك عديد من الآيات التي تبين أن الإنسان سيأتي يوم القيامة ويجد ما عمل حاضرا أمامه، يجد ما عمل من خير أو شر، فكل شيء محفوظ ومسجل، قال تعالى: (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)، فالكتاب الذي يوضع هو أرشيف أعمال وأقوال البشر، فكل شيء مدون فيه، مدون بذاته، فيه الكلام والعمل. وقوله (ووجدوا ما عملوا) يدل على أن الإنسان سيجد ذات عمله وقوله، وليس مجرد الإخبار عن قبوله أو رفضه. وقال: (وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)، فقوله: أتينا بها، يدل على وجود حقيقي للعمل والقول، وليس مجازياً، وأنه في يوم من الأيام سيأتي الله بها، ويجدها كل إنسان، (وكفى بنا حاسبين)، أي: نحسب على العباد حتى مثقال حبة من خردل من أعمالهم وأقوالهم.

فهذه الآيات وغيرها تدل على أن كلام الإنسان أو عمله له وجود، ونحن لا نعلم حقيقة هذا الوجود، واليوم فإن التقنية تساعدنا كثيرا على الفهم، فتسجيل الصوت مثلا، يحفظ صوت الإنسان، ويمكنه من استرجاعه، والاستماع إلى ما قاله مرة أخرى، والتسجيل المرئي يسجل عمل الإنسان ويوثقه، ويمكن من استرجاعه، فهذه تقنية البشر، فما بالك بما عند الله سبحانه وتعالى، الذي يسجل

كل عمل وكل قول وكل خطرة وكل نظرة، وهو العليم بما تخفيه الصدور. وفي الإنسان نفسه حافظ لفعله وقوله، أي: تسجيل ذاتي، قال تعالى: (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ).

وما أفادته الآية أن الكلام الطيب للإنسان، والعمل الصالح له سيُحفظ في كتاب، غير الكتاب الذي يحفظ فيه الكلام غير الطيب، أو العمل الصالح. فكتاب حفظ الكلم الطيب والعمل الصالح هو في عليين، قال تعالى: (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ)، فعليون كتاب مرقوم يسجل فيه الكلام الطيب الصاعد والعمل الصالح المرفوع.

وأما الكتاب الذي يحفظ فيه الكلم غير الطيب والعمل غير الصالح فهو في سجين، قال تعالى: (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ)، وسجين هي مقابل عليين، فحركة الكلام إليه هبوط، وليس صعودا، وحركة الأعمال انخفاض، فالله يخفض أعمالهم حتى تصل إلى الكتاب المرقوم في سجين.

قال تعالى: (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)، (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا). فالكتاب الذي وضع هو الكتاب المرقوم، كتاب الأبرار الذي كان في عليين، وكتاب الفجار الذي كان في سجين، والآية الثانية يراد بالكتاب فيها كتاب الفجار، فهم مشفقون

مما فيه.

وهذا أيضا يفسر قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ)، فأقوالهم هابطة، وأعمالهم منخفضة، ومن ثم فهي تذهب إلى سجين، ولا تفتح لهم أبواب السماء، أي: لا تصعد أقوالهم ولا ترفع أعمالهم. ويفهم منه أن سجين في مكان هابط جدا، وطريقه ليست طريق السماوات، فطريق السماوات علو، وطيق سجين هبوط، والطريق إليه لا يمر بالسماء، ومن ثم فأبوابها لا تفتح لهم. فالخلاصة أن عليين هو أعلى الأمكنة، وهو منتهى قوله (إليه)، ولا نعلم أين هو. وسجين هو أسفل الأمكنة، ولا نعلم أين يكون.

□

ثامناً: رفع الدرجات:

أخبر الله عن نفسه بأنه (رفيع الدرجات)، أي هو كثير رفع الدرجات، وقد ورد الحديث عن (رفع الدرجات) في ستة مواضع.

(١) تقسيم المواضع:

موضعان يبينان رفع درجات البشر بعضهم على بعض، قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)، وقال: (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا). فرفع الدرجات هنا هو تفاوت مراتب الناس.

قال الطبري: (وخالف بين أحوالكم، فجعل بعضكم فوق بعض، بأن رفع هذا على هذا، بما بسط لهذا من الرزق ففضّله بما أعطاه من المال والغِنى، على هذا الفقير فيما خوَّله من أسباب الدنيا، وهذا على هذا بما أعطاه من الأيْد والقوة على هذا الضعيف الواهن القُوى، فخالف بينهم بأن رفع من درجة هذا على درجة هذا، وخفض من درجة هذا عن درجة هذا). وقال ابن عطية: (لفظ عام في المال والقوة والجاه وجودة النفوس والأذهان وغير ذلك، وكل ذلك إنما هو ليختبر الله تعالى الخلق فيرى المحسن من المسيء). وقال ابن عاشور: (جعل منهم أقوياء وضعفاء، وأغنياء ومحاويج، فسخر بعضهم لبعض في أشغالهم على حساب دواعي حاجة الحياة، ورفع بذلك بعضهم فوق بعض، وجعل بعضهم محتاجا إلى بعض ومسخرا به).

❖ ❖

وثلاثة مواضع اقترنت بالعلم: (يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)، وفي يوسف: (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)، وفي الأنعام (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ).

قال البغوي: (نرفع من نشاء درجات بالعلم والفهم والفضيلة والعقل، كما رفعنا درجات إبراهيم حتى اهتدى وحاج قومه في التوحيد، إن ربك حكيم عليم). وقال الشوكاني: (نرفع درجات من نشاء بالهداية والإرشاد إلى الحق وتلقين الحجة، أو بما هو أعم من ذلك). وقال ابن عطية في تفسير آية يوسف: (والمعنى أن البشر في العلم درجات، فكل عالم فلا بد من أعلم منه، فإما من البشر وإما الله عز وجل). وقال ابن الجوزي في زاد المسير عند تفسير آية يوسف: (والمعنى: نرفع الدرجات بصنوف العطاء، وأنواع الكرامات، وابواب العلوم، وقهر الهوى، والتوفيق للهدى، كما رفعنا يوسف. وفوق كل ذي علم عليم أي: فوق كل ذي علم رفعه الله بالعلم من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى، والكمال في العلم معدوم من غيره. وفي مقصود هذا الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: يوسف أعلم من إخوته، وفوقه من هو أعلم منه. والثاني: أنه نبه على تعظيم العلم، وبين أنه أكثر من أن يحاط به. والثالث: أنه تعليم للعالم التواضع لئلا يعجب).

❖ ❖

وفي موضع جاءت في سياق الحديث عن تفضيل بعض الرسل

على بعض: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ).

قوله (ورفعنا بعضهم درجات)، قال ابن عطية: (قال مجاهد وغيره: هي إشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه بعث إلى الناس كافة وأعطي الخمس التي لم يعطها أحد قبله، وهو أعظم الناس أمة، وختم الله به النبوات إلى غير ذلك من الخلق العظيم الذي أعطاه الله، ومن معجزاته وباهر آياته. ويحتمل اللفظ أن يراد به محمد وغيره ممن عظمت آياته ويكون الكلام تأكيدا للأول. ويحتمل أن يريد رفع إدريس المكان العليّ ومراتب الأنبياء في السماء فتكون الدرجات في المسافة ويبقى التفضيل مذكورا في صدر الآية فقط).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير: (وفي المراد بقوله: ورفع بعضهم درجات قولان: أحدهما: عنى بالمرفوع درجات، محمدا عليه السلام، فإنه بعث إلى الناس كافة، وغيره بعث إلى أمته خاصة، هذا قول مجاهد. والثاني: أنه عنى تفضيل بعضهم على بعض فيما آتاه الله، هذا قول مقاتل).

وقال ابن عاشور: (وقد خص الله من جملة الرسل بعضا بصفات يتعين بها المقصود منهم، أو بذكر اسمه، فذكر ثلاثة إذ قال: منهم من كلم الله، وهذا موسى عليه السلام لاشتهاره بهذه الخصلة العظيمة في القرآن، وذكر عيسى عليه السلام، ووسط بينهما الإيماء إلى محمد صلى الله عليه وسلم بوصفه، بقوله: ورفع بعضهم درجات.

وقوله: "ورفع بعضهم درجات" يتعين أن يكون المراد من البعض هنا واحدا من الرسل معينا لا طائفة، وتكون الدرجات مراتب من الفضيلة ثابتة لذلك الواحد؛ لأنه لو كان المراد من البعض جماعة من الرسل مجملا، ومن الدرجات درجات بينهم لصار الكلام تكرارا مع قوله "فضلنا بعضهم على بعض"، ولأنه لو أريد بعض فضل على بعض لقال: ورفع بعضهم فوق بعض درجات، كما قال في الآية الأخرى: "ورفع بعضكم فوق بعض درجات").

❖ ❖

(٢) التعليق على ما سبق:

هذه التراكيب المتعلقة ببيان رفع الدرجات، يمكن ردها إلى تركيبين، أحدهما يدل على التفاضل، والآخر يدل على التفضيل.

أ. التركيب الأول: الدلالة على التفاضل:

التركيب الأول (رفع بعضكم فوق بعض درجات)، هذا التركيب يدل على التفاضل لا التفضيل (بعضكم فوق بعض)، ولذلك فالرفع يتجه إلى المرفوعين (بعضكم)، وتفاوتهم (فوق بعض)، ومراتبهم (درجات).

وقد جاء في الموضعين الأولين. وفي كليهما دل على تفاوت الدرجات بين البشر، والدرجات هي ما قسمه الله لهم من مال وجاه وعلم ومنزلة وفهم، فتفاوتوا بين غني وفقير، ورئيس ومرؤوس، وتفاوتت أفهامهم ومنازلهم. وذلك ليكون بعضهم سخريا لبعض، ولتستقيم الحياة، وتكتمل المعايش، وهذا هو الابتلاء.

ب. التركيب الثاني: الدلالة على التفضيل

والتركيب الثاني: رفع فئةٍ درجات، وهذا التركيب يدل على التفضيل لا التفاضل، فهو يفضل فئة بعينها على غيرها. فالرفع يتجه إلى المرفوع وإلى ما رفع به، ولا يتجه إلى التفاوت. وهو في بقية المواطن. والفئة (من نشاء) [مع إبراهيم ويوسف]، أو (الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم). أو (بعضهم) كما في آية الرسل.

وهذه الفئة وإن جاءت بلفظ الإبهام إلا أن تخصيصها واضحة،

فـ(من نشاء) في آية الأنعام يراد به إبراهيم، وفي سورة يوسف هو يوسف، كما يدل عليه السياق. والفئة في سورة المجادلة هي فئة المؤمنين والعلماء.

و(بعضهم) في آية الرسل، فقد خصه بعض المفسرين بمحمد صلى الله عليه وسلم، ولعل ذلك هو الراجح، كما ذكر ابن عاشور. فهذا التركيب لا يدل على التفاضل كالتركيب الأول، بل على التفضيل، ومن ثم فهو يفضل رسولا بعينه، فتفسيره بأنه رسول الله هو ما يدل عليه السياق ودلالة التركيب.

ويلحق بهذا قوله: (ورفعناه مكانا عليا)، فالمرفوع هو إدريس، وقد رفع مكانا عليا، فهو يبين المرتبة التي رفع إليها، والتركيب يدل على التفضيل، وقد قال بعض المفسرين أن الرفع حسي، وبعضهم قال أنه رفع المنزلة، والأرجح دلالته على المنزلة، كما هو في سائر التراكيب الدالة على ذلك. والرفع الحسي هو ما ورد مع عيسى عليه السلام (رفعه الله إليه)، فهذه دلالتها واضحة على الرفع الحسي، ولذلك جاء بتركيب مختلف.

◆

تاسعاً: (في بيوت أذن الله أن ترفع)

قال تعالى: (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)، ما المراد بالرفع؟

للمفسرين قولان في الرفع، ذكرهما الطبري، الأول: الرفع هو البناء، والثاني: الرفع هو التعظيم.

وترد على القولين مجموعة من الإشكالات.

فالقول بأن الرفع هو البناء، فالسؤال: هل رفع هذه البيوت يقتضي إذنا خاصا من الله؟ فهي سترفع كغيرها من البيوت، فلماذا تقيد الآية ذلك (بإذن الله)؟ ومن ثم فلا دلالة في القول بأن المعنى أن يرفع بناء البيوت. فهي سترفع كما يرفع غيرها من عامة البيوت.

وأما القول بأن الرفع هو التعظيم، فإن دلالة التشريف للشيء المرفوع لا ترد في مثل هذا التركيب، بل ترد مقترنة بالظرف، كقوله: (ورفعناه مكانا عليا)، وقوله: (ورفع بعضهم درجات)، ولم يقع الرفع بمعنى التشريف إلا على الناس.

والسؤال الآن: ما المراد بالرفع؟ وما عائد الضمير في قوله: (ترفع)؟

قوله (أذن الله أن ترفع)، يطرد مجيء الفعل (أذن الله)، أو (بإذن الله) في القرآن الكريم للدلالة على فعل يقع من غير الله، ولا يقع إلا بإذن الله، كقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ)، (وَإِذْ

تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي)، (وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ)...

فقوله (أذن الله أن ترفع)، أي أذن بأن يرفعها الناسُ؟ ولكن من هم الناس؟

الملاحظ أن الآية الأولى جاءت الأفعال فيها مبنية للمجهول: تُرفَع، ويُذكَر، يسبَّح (في قراءة)، فالأفعال التي تكون في البيوت هي: الرفع، وذكر اسم الله، وتسبيحه بالغدو والآصال. ثم جاءت الآية التالية (رجالٌ لا تلهيهم...)، فهم الفاعلون، هم من يرفعون، وهم من يذكرون اسم الله، وهم من يسبحونه فيها. فهي تجيب على السؤال: من الذي يقوم بهذه الأفعال؟ فكان الجواب: رجال لا تلهيهم...، أي: هم رجال.

وأوضحت دلالة الآية، ودلالة الرفع فيها، في شرح آية النور. [انظر بحث: الظلمات والنور في القرآن الكريم]، فالرفع يتصل بنور الله الذي يهدي به الناس.

□

المطلب الثالث: أوسع:

السعة: طاقة محددة للشيء قابلة للتوسع، إذا استوفاها ضاق عن أي شيء آخر. وهي بحسب ما تضاف إليه، فقد تكون: كمية، أو حيزا، أو عدداً، أو قدرة، أو قوة، أو علما، أو غنى.

الوُسْع: القدرة على بلوغ أقصى مدى للسعة.

الواسع هو: الذي يسع كلَّ شيء رحمةً وعلماً وقدرةً وفضلاً.

أولاً: السَّعَة والوُسْع:

(١) السعة:

السعة: طاقة محددة للشيء قابلة للتوسع، إذا استوفاها ضاق عن أي شيء آخر. وهي بحسب ما تضاف إليه، فقد تكون: كمية، أو حيزا، أو عدداً، أو قدرة، أو قوة، أو علما، أو غنى.

فالشيء إذا استوفى طاقته، يضيق عما زاد عليها، ولا يتحمله، ولا يتسع له. فمثلا: الإناء له سعة محددة لا يتسع لما عداها (كمية)، والمساحة من الأرض لها سعة محددة (حيز)، والإنسان له سعة محددة من الغنى، وله سعة محددة من القوة، وله سعة محددة من المال... وهذه السعة هي طاقة لا يتجاوزها الشيء.

والقول بأنها (قابلة للتوسع)، يعني أن السعة إذا وصلت إلى حد الضيق وذلك بالامتلاء، أمكن توسيعها بإضافة طاقة أخرى إليها. [وسوف أزيد هذا توضيحا لاحقاً].

والعرب لا تستخدم لفظ (السعة) إلا إذا كانت الطاقة متجاوزة

المدى المتوسط من الشيء. وذلك بتقدير أن لكل شيء مدى متوسطا، فإن قلّ عنه فهو إلى الضيق أقرب، وإن زاد عنه فهو إلى السعة أقرب. فمثلاً: المال، إن قلّ لدى شخص ما عن متوسط ما يملكه الناس فهو في ضيق، وإن زاد عن ذلك المدى فهو في سعة. فطاقته أوسع (قياساً إلى المتوسط).

وليس من الدقيق السؤال عن الحجم أو الحيز أو المسافة بلفظ: السعة، فمثلا: كم سعة الإناء؟ الأدق أن تقول: كم حجم الإناء؟ لأن السعة ترتبط بالآنية الواسعة، وليست الضيقة. كذلك تقول: هل السفينة واسعة؟ فإن أجيب بـ: نعم، فقل: كم سعتها؟ أو: لِكم شخص تتسع؟ وإن قيل: لا، فلا تسأل عن السعة، بل اسأل بنحو: كم شخصاً تحمله؟... إلخ.

سعة من المال:

قال تعالى: (قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ)، فهم يقولون أنه غير غني، فسعته من المال ضيقة، غير واسعة، فهم لم ينفوا عنه المال، ولكن نفوا عنه: السعة من المال. وهو ربط يتكئ على تشبيهه بالسائد، ويربطه بالمتوسط. فالفقير يشبه صاحب الإناء الضيق، الذي يمتلئ بكمية قليلة، والغني يشبه صاحب الإناء الواسع الذي يتسع لكمية كبيرة.

فالعرب تصف الشيء الزائد عن المتوسط (في نظيره) بالسعة، فتقول: إناء واسع، أرض واسعة، دار واسعة، وما قل عن المتوسط وصف بالضيق: إناء ضيق وأرض ضيقة... وهذا ينطبق تماما في ما يتعلق بالغنى والعلم، فالغني ذو سعة من المال، والعالم أيضاً ذو سعة من

العلم.

لينفق ذو سعة من سعته:

قال تعالى: (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)، فقوله (لينفق ذو سعة من سعته)، أي: ذو طاقة واسعة من الغنى، لينفق ذو الغنى من غناه. فالسعة هنا: طاقة الغنى. وقد قابل بينه وبين من ضاق عليه رزقه. ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، أي قدرتها على السعة، فهو الذي آتاها ربها. فالسعة يسر، والفقر عسر. ومثله قوله: (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ). فأولو السعة هم أولو الغنى.

مراغما كثيرا وسعة:

وفي قوله: (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً)، وسعة، أي: حيزا في الأرض أرحب، ورزقا أوفر، كما يمكن أن تشمل: الخبرة المستحدثة، والمعرفة المستجدة الناتجة عن الهجرة، فذلك يساعده على كسب مزيد من الرزق. وتشمل أيضا: الراحة النفسية، فما تجده النفس من راحة بعد ضيق، فهو سعة.

يغن الله كلا من سعته:

وقوله تعالى: (وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا)، فقوله: (من سعته)، إلام يعود الضمير؟ أرجح عودة

الضمير إلى (الإنسان) لا إلى اللّه سبحانه وتعالى، فلفظ (السعة) لم يسند إلى اللّه تعالى، بل أسند إلى رحمته أو علمه، فلم يرد في القرآن: أن اللّه وسع الأشياء، بل: وسعت رحمته وعلمه كل شيء، قال تعالى: (وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا)، (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)، (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا). فالفعل يسند إلى رحمة اللّه وعلمه، وقوله: (وسع ربي كل شيء علما)، أي: وسع علم ربي كل شيء، كما نطقت بذلك الآية: (ورحمتي وسعت كل شيء). فالتمييز تمييز النسبة، وهو الذي يقع عليه الإسناد، كما تقول: اشتعل الرأس شيبا، فلو قلت: اشتعل الرأس، ووقفت لما تبين المعنى، فأنت تسند الاشتعال إلى شيب الرأس لا إلى الرأس. وكقوله: (أنا أكثر منك مالا)، فالكثرة مسندة إلى المال. ونحو: امتلأ الحوض ماء، فالامتلاء مسند إلى الماء، ونحو: زرعت الأرض بذرةً، أي: زرعت البذرة.... وهذا من حيث المعنى، أما من حيث اللفظ، فالحوض فاعل، و(ماء) تمييز...

ومن ثم فنقول: سَعَة رحمة اللّه، وسَعَة علمه، ولا نقول: سَعَة اللّه. وعليه فالضمير في (من سعته) لا يعود إلى اللّه سبحانه وتعالى، بل إلى الإنسان: (الزوج أو الزوجة بعد تفرقهما)، والمعنى: إن يتفرقا فاللّه سبحانه وتعالى سيغني كلاً منهما، سواء بقرين، أو بسعادة وراحة، ... إلخ. وإفراد الضمير وتذكيره في (سعته) باعتبار لفظ (كلاًّ)، نحو: أعطيت كلاًّ من نصيبه. والتقدير: يغني اللّه كلا منهما من سعته المقدرة له من غنى وراحة وسعادة.

❖ ❖

(٢) الوُسع:

والوُسْع: القدرة على بلوغ أقصى تلك الطاقة. وبلفظ آخر: القدرة على بلوغ أقصى مدى للسعة.

فالسعة تتعلق بالطاقة نفسها، أما الوسع فيتعلق بالقدرة على استيفاء تلك الطاقة.

لا يكلف الله نفسا إلا وسعها:

والوُسْع، كما في قوله: (لَا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)، (لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)، أي: القدرة على بلوغ أقصى طاقتها، التي يمكنها القيام بها. فاللّه لا يكلف نفسا فوق طاقتها، أي فوق قدرتها على القيام بالشيء. والتكليف يتعلق بالقدرة على الشيء. وقوله تعالى: (وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا)، فالوسع هنا: القدرة على النفقة.

❖ ❖

□

ثانياً: وَسِع:

والفعل من (السعة) هو: وَسِع الشيءُ فهو واسعٌ، تقول: وسع البيتُ ساكنيه، أي رَحُبَ البيتُ بهم ولم يضق عنهم، فالبيت واسع. ووَسِع الإناءُ الماءَ، أي: اتسع له، ولم يفض عنه، فلو وضعت كمية من الماء في وعاء ففاض الماء فإن الإناء لم يسع الماء. وقوله تعالى: (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)، أي: رحب بها، ولم يضق عنها، فهي في جوفه كما قال السدي. وقد تحدثت عن الآية في بحث: السماء والسماوات في القرآن الكريم.

والوصف من: وسع: واسع، نحو: دار واسعة، وإناء واسع. وفي القرآن الكريم وصفت الأرض بالسعة، ثلاث مرات، قال تعالى: (وَأَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةٌ)، وقال: (أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا)، وقال: (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ). أي: تسع الناس، فالله خلق الناس وخلق لهم أرضاً تسعهم جميعا، وإن ضاقت بإنسان منهم أرض وسعته أرض أخرى. وضِيق الأرض قد يكون محسوسا، وقد يكون غير محسوس، فالذي لا يستطيع أن يعبد الله في أرض، فإن الأرض تضيق عليه، فإذا هاجر سيجد أرضا واسعة تسعه وتسع عبادته. فكأن الأرض الأولى لم تَسَعْ عبادته، أو لم تَسَعْ أفعاله، وذلك نتيجة لمضايقة أهلها له. فحين يهاجر إلى أرض أخرى، ويتمكن فيها من ممارسة أفعاله، فكأن الأرض وسعته ووسعت أفعاله.

❖ ❖

وتقول: وَسِع زيدٌ أهلَ قريته غنىً وجوداً، أي: غناه وجوده يسعهم جميها، فمهما طلبوا منه كان قادرا على إعطائهم. ونحو: وَسِع زيدٌ

أهلَ زمنه علماً، أي أنه بعلمه يسعهم، فهو أعلم منهم، وإن سألوه وجدوا عنده علماً. فإسناد السعة إلى البشر نسبي، وليس إسنادا مطلقاً.

وسع ربي كل شيء علما:

وقوله تعالى: (وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا)، أي: أن الله يسع كل شيء مخلوق بعلمه، فهو يعلم كل شيء عن كل شيء، فعلمه يسع كل المعلومات، لا يخفى عليه، فكل علم في الوجود يقع ضمن علمه سبحانه وتعالى. وسأضرب مثلاً، لو أتيت بمعلومة لزيد من الناس، وكان يعلمها فإن علمه قد وسع تلك المعلومة، فكأنها ضمن إناء علمه، ولو أنك أتيت زيداً بمعلومة ولم يكن يعلمها، فإنها كانت خارج (إناء علمه)، فعلمه لم يسعها. ولله المثل الأعلى، فالله وسع كل شيء علماً.

وقوله تعالى: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)، أي أن رحمة الله سبحانه وتعالى أحاطت بكل شيء، قال الطبري: (ورحمتي عمّت خلقي كلهم)، فما يقع شيء من الخلق خارج رحمة الله سبحانه وتعالى. وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا، وأنزل في الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها، خشية أن تصيبه). وقوله (فسأكتبها..)، قال الحسن وقتادة: (رحمة الله وسعت في الدنيا البر والفاجر، وهي يوم القيامة للذين اتقوا خاصة). فأي مظهر من مظاهر الرحمة يقع في الخلق فإن رحمة الله تسعه.

جاء فعل (وسع) ‌في القرآن الكريم ست مرات، أسند في أربع منهن إلى الله سبحانه وتعالى: (وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا)، (وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا)، (وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا)، (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا). ومرة أسند إلى رحمة الله (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)، والمفعول فيها كلها (كل شيء)، فعلم الله ورحمته يسعان كل شيء. والسادسة أسند الفعل إلى الكرسي (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)، فلم يقل: وسع كل شيء، بل: السماوات والأرض. فلا يسع كل شيء رحمة وعلما وقدرة وإحاطة ورزقا إلا الله سبحانه وتعالى.

ذو رحمة واسعة:

وقد وصفت الرحمة بالسعة في قوله تعالى: (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)، قال الطبري: ("فقل ربكم ذو رحمة"، بنا، وبمن كان به مؤمنًا من عباده، وبغيرهم من خلقه، "واسعة"، تسع جميع خلقه، المحسنَ والمسيء، لا يعاجل من كفر به بالعقوبة، ولا من عصاه بالنِّقمة، ولا يدع كرامة من آمن به وأطاعه، ولا يحرمه ثواب عمله، رحمة منه بكلا الفريقين، ولكن بأسه وذلك سطوته وعذابه لا يردّه إذا أحله عند غضبه على المجرمين بهم عنهم شيء).

فرحمة الله الواسعة تسع الخلق جميعا في الدنيا، تسع البر والفاجر، والذين يكفرون بالله تسعهم رحمته في الدنيا، ولولا رحمته لما بقوا على وجه الأرض، ولولا رحمة الله لما بقي إبليس على وجه الأرض. قال تعالى: (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى).

❖ ❖

واقترن فعل (وسع) في القرآن الكريم مع علم الله ورحمته، ولم يقترن بشيء آخر. وكما قدمت فنحن نقول: وسع الله كل شيء رحمةً، أو: وسع كل شيء علماً، أو قدرةً، أو غنىً، أو رزقا... إلخ. فلا نطلق اللفظ، لا نقول: (الله يسع كل شيء)، بل نحدد ونعين النسبة، نقول: الله يسع كل شيء علماً، أو: يسع الله كل شيء برحمته وعلمه...الخ. ومن ثم فلا نضيف السعة إلى الله، بل إلى ما يتصف به، نحو: سعة رحمة الله، وسعة علمه. ولا نقول: سعة الله.

❖ ❖

□

ثالثاً: (واسع)

جاء لفظ (واسع) في القرآن الكريم وصفا لله سبحانه وتعالى، في ثمانية مواضع، ستة منها وصف الله سبحانه وتعالى بأنه (واسع عليم)، وواحد منها (وَكَانَ اللهُ وَاسِعًا حَكِيمًا)، والثامن مركب إضافي: (إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ).

قدمت أن الفعل (وسع) لم يسند إلى الله تعالى إلا ملاحظا فيه النسبة، كقوله: (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا)، والتقدير: وسعت رحمته ووسع علمه كل شيء. ومن ثم فنقول أن الله واسع العلم، واسع الرحمة. أي: الذي يحيط علمه بكل المعلومات، وتعم رحمته كل المخلوقات. ومن ثم فالوصف (واسع) تراعى فيه هذه الإضافة، وهو ما صرح به في الآية: (واسع المغفرة)، قال ابن كثير: (مغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها، كقوله: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم)). ومن ثم فقوله تعالى: (واسع عليم)، يقصد به: واسع العلم، وقوله (واسعا حكيما)، أي: واسع الحكمة. والذي يتبين لي أن (واسع) من الأوصاف المركبة، وهو الغالب فيه: واسع العلم، واسع المغفرة، واسع الرحمة، واسع الحكمة، واسع الفضل، واسع الغنى... الخ. وقد يستعمل مفردا (واسع)، ولكن الإضافة مراعاة فيه.

وقد نظر بعضهم إلى لفظ (الواسع) على أنه لفظ مفرد، ففسروه بأنه (الذي يسع عطاؤه خلقه)، أو (الذي يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال والجود)... وهو تفسير: الواسع بأنه: الموسع المغني.

والأولى النظر إليه على أنه وصف مركب لا مفرد، فالواسع بحسب ما يقترن به: (واسع عليم)، أي: واسع العلم، (واسعا حكيما)، أي: واسع الحكمة.

في النهاية لابن الأثير: الواسع: (هو الذي وسع غناه كلَّ فقير، ورحمته كلَّ شيء). فهو قَصَر الواسع على بعض متعلقاته. وفي لسان العرب: (هو الذي وسع رزقه جميعَ خلقه ووسعت رحمته كلَّ شيء وغناه كلَّ فقر. وقال ابن الأنباري: الواسع من أسماء الله: الكثير العطاء الذي يسع لما يسأل، قال: وهذا قول أبي عبيدة. ويقال: الواسع المحيط بكل شيء).

وقال الإمام الغزالي في المقصد الأسنى: (الواسع: مشتق من السَّعة، والسعة تضاف مرة إلى العلم إذا اتسع وأحاط بالمعلومات الكثيرة، وتضاف أخرى إلى الإحسان وبسط النعم وكيف ما قدر وعلى أي شيء نزل، فالواسع المطلق هو الله سبحانه وتعالى لأنه إن نظر إلى علمه فلا ساحل لبحر معلوماته بل تنفد البحار لو كانت مدادا لكلماته وإن نظر إلى إحسانه ونعمه فلا نهاية لمقدوراته، وكل سعة وإن عظمت فتنتهي إلى طرف، والذي لا ينتهي إلى طرف فهو أحق باسم السعة. والله سبحانه وتعالى هو الواسع المطلق لأن كل واسع بالإضافة إلى ما هو أوسع منه ضيق وكل سعة تنتهي إلى طرف فالزيادة عليه متصورة وما لا نهاية له ولا طرف فلا يتصور عليه زيادة. وأما سعة العبد في معارفه وأخلاقه فإن كثرت علومه فهو واسع بقدر سعة علمه وإن اتسعت أخلاقه حتى لم يضيقها خوف الفقر وغيظ الحسد وغلبة الحرص وسائر الصفات فهو واسع، وكل

ذلك فهو إلى نهاية، وإنما الواسع الحق هو الله تعالى).

❖ ❖

فالواسع هو (الذي يسع كلَّ شيء رحمةً وعلماً وقدرةً وفضلاً). فما من شيء إلا وهو داخل في علم الله ورحمته وفضله وقدرته. فهو الواسع الحق، الذي لا حدّ لما يسعه برحمته وعلمه وقدرته وفضله. وكل شيء داخل في ذلك.

وبهذا تفسر الآيات، فقوله تعالى: (وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا)، أي: واسع الحكمة، فهو أعلم بما يصلح للأزواج إذا وصلوا إلى حد الفراق. ولا أحد أوسع حكمة من اللّه. وقوله: (ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)، أي: واسع العلم، فهو أعلم حيث يضع فضله، وهو أعلم بمن يستحق الفضل منه.

❖ ❖

□

رابعاً: أوسع، فهو موسع:

جاء (أوسعَ) في لسان العرب على صيغتين: لازم ومتعد، فاللازم نحو: (أوسع الرجلُ)، أي: صار ذا سعة، فهو مُوسِع، أي: مليء. والمتعدي نحو: (أوسع الشيءَ)، أي: صيره واسعا، يقال: أوسعه إيساعاً ووَسّعه توسيعاً، ضد: ضيقه تضييقاً. ويقال: أوسع اللّهُ فلاناً، أي: أغناه وصيره ذا سعة. وفي الدعاء: اللهم أوسعنا رحمتَك، أي: اجعلها تسعنا. (انظر لسان العرب).

فالتوسيع، هو زيادة في السعة، أي: إضافة سعة أخرى إلى السعة السابقة للشيء.

وقد سبق أن عرفت السعة بأنها: طاقة محدودة للشيء قابلة للتوسع. ولذلك لا يصح إضافتها إلى الله، فلا نقول: (سعة الله) بل نضيف السعة إلى رحمته أو علمه، والله ذو الرحمة الواسعة، والعلم الواسع، فنسبة السعة إلى الرحمة بالنظر إلى من تعمهم الرحمة، وليس بالنظر إلى الرحمة نفسها. بمعنى أن رحمة الله واسعة سعة مطلقة، فهي غير قابلة للزيادة، وإلا كانت ناقصة قبل زيادتها. وكذلك علمه سبحانه وتعالى فهو ذو العلم الواسع، وهو علم لا يزيد، وإلا كان ناقصاً، سبحانه وتعالى. فالإضافة في قولنا: سعة رحمة الله، وسعة علمه، بالنظر إلى المخلوقات؛ فمهما ازدادت فإن رحمة الله تسعها، والمعلومات؛ فمهما استجدت فإن علم الله يسعها.

❖ ❖

على الموسع قدره:

قال تعالى: (لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ).

قال الرازي: (الموسع الغني الذي يكون في سعة من غناه، يقال: أوسع الرجل إذا كثر ماله، واتسعت حاله، ويقال: أوسعه كذا أي وسّعه عليه، ومنه قوله تعالى: "وإنا لموسعون"، وقوله: "قدره" أي قدر إمكانه وطلاقته، فحذف المضاف، والمقتر الذي في ضيق من فقره، وهو المقل الفقير، وأقتر إذا افتقر). وقال ابن عاشور: (الموسع من أوسع إذا صار ذا سعة، والمقتر من أقتر إذا صار ذا قتر وهو ضيق العيش، والقدر - بسكون الدال وبفتحها - ما به تعيين ذات الشيء أو حاله، فيطلق على ما يساوي الشيء من الأجرام، ويطلق على ما يساويه في القيمة، والمراد به هنا الحال التي يقدر بها المرء في مراتب الناس في الثروة، وهو الطبقة من القوم، والطاقة من المال).

ونلاحظ أن الآية قابلت بين الموسع والمقتر، فالموسع ليس الغني على إطلاقه، والمقتر ليس الفقير على إطلاقه، بل الموسع: هو من صار ذا سعة بعد أن لم يكن، فالتحول في الواقع مراعى في صيغة الفعل، والمقتر: من أقتر، أي صار ذا قتر بعد أن لم يكن. وهذه المقابلة تشابهها المقابلة في قوله تعالى: (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)، فقابل بين (ذي السعة) وبين (من قدر عليه رزقه)، ثم قابل بين اليسر والعسر.

والموسع هو (مَنْ صار ذا سعة)، أيا كانت تلك السعة – كما تقدم بيانه، ويتم تعيين (السعة) بحسب السياق، فسياق الآية يبين أن السعة هي الغنى. ويصح أن نقول: أوسع الرجل: إذا اتسع علمه وصار ذا سعة من العلم بعد أن لم يكن. ومن ثم فليس من الدقيق القول أن معنى: (أوسع الرجلُ): كثر ماله، أو صار ذا غنى. إلا إذا خرج مخرج الغالب فيه، فالناس غالباً ما يريدون بالسعة: الغنى. ولكنه يشمل الغنى ويشمل غيره.

❖ ❖

وإنا لموسعون:

وقوله تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ).

اختلف المفسرون في المراد بقوله (لموسعون) على خمسة أقوال، كما قال ابن الجوزي: (أحدها: لموسِعون الرِّزق بالمطر، والثاني: لموسِعون السماء، والثالث: لقادرون، والرابع: لموسِعون ما بين السماء والأرض، والخامس: لذو سعة لا يضيق عمّا يريد).

ذكرت أن لفظ (موسع)، يرد عند العرب لازما ومتعديا، فأما اللازم نحو: أوسع الرجلُ، أي صار ذا سعة، (غنى، مثلاً)، فالصيغة تفيد الصيرورة، فنحن لا نقول للغني أوسع إلا إذا صار إلى الغنى بعد أن لم يكن. وكذلك: أوسع الرجلُ، صار ذا سعة في علمه أو قدرته، فأصبح غنيا قادرا عالما... وعليه فلا يصح حمل هذا المعنى على الله سبحانه وتعالى، فلا نقول: (أوسع اللهُ) بمعنى: أنه غني أو قادر...

فلفظ (أوسع) يقتضي الصيرورة، وتعالى الله عن ذلك. ومن ثم فنحن لا نرتضي هذا المعنى تفسيرا في قوله (وإنا لموسعون).

وأما المعنى الخامس الذي أورده ابن الجوزي (لذو سعة لا يضيق عمّا يريد)، فهو غير صحيح، فهذا معنى: واسع، من: وسِع فهو واسع، أي: ذو سعة، ولو كان هذا المعنى لقال: (لواسعون).

وعليه فقوله (وإنا لموسعون) لا يحتمل إلا صيغة المتعدي، أي: وإنا لموسعون السماءَ، أي: نصيرها واسعة. وقد رجح ابن حيان – وهو من أئمة اللغة والتفسير هذا المعنى، قال: (وإنا لموسعون: أي بناءها، فالجملة حالية، أي بنيناها موسعوها، كقوله: جاء زيد وإنه لمسرع، أي مسرعا، فهي بحيث إن الأرض وما يحيط من الماء والهواء كالنقطة وسط الدائرة. وقال ابن زيد قريبا من هذا وهو: أن الوسع راجع إلى السماء).

والآية تتحدث عن بناء السماء وإحكام بنائها، ومن ثم فالأنسب حمل قوله (لموسعون)، على البناء لا على شيء آخر، فهو أليق بالسياق، وأنسب بالمقام، فالمعنى: لموسعون بناءها.

ذكرت أن السعة (طاقة محددة للشيء قابلة للتوسعة)، ومن ثم فتوسيع الشيء يتناسب مع طبيعته، فلو لديك دارٌ تريد توسيعها فإنك ستضيف حيزا جديداً لها دون أن تغير الحيز الأول، وربما هدمتَ شيئا يسيرا منه؛ إذ لا تستطيع التوسيع دون قليل من الهدم. وفي الجملة فإن التوسعة لا تغير من طبيعة الشيء الموَسّع، بل تتسق مع طبيعته، وتنسجم مع نظامه.

والله سبحانه وتعالى أوسع بناءَ السماء، وهو لا يقتضي التغيير،

بل يكون الاتساع في إطار البناء، وهذا يقتضي مرونة البناء وروعته ودقته، بحيث إنه يقبل التوسعة دون أن يغير ذلك منه، وإذا أمكن لنا التمثيل فيمكننا أن نمثل بالبالونة التي يمكنك أن توسعها، فيزداد حجمها، دون أن يغير ذلك من هيئتها. أو تمثيلها بالخبز الذي تضعه في الفرن عجينا فينتفخ ويكبر. فلعل السماء كذلك والله أعلم، بناء كروي ذو مرونة متناهية، يقبل التوسعة، دون أن يؤثر ذلك على بنائه شيئا. والتوسعة تتناسب مع طبيعة البناء، وهذا يقتضي أنها تتم بصورة دقيقة ومنظمة، لا عشوائية فيها، بل بإحكام وإتقان.

كما أن توسيع البناء لا يقتضي استمرار التوسعة إلى ما لا نهاية، فالله سبحانه وتعالى أخبرنا أن للسماوات والأرض وما فيها أجلا مسمى، قال تعالى: (مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى).

المطلب الرابع: الضحى:

أولاً: الضحى لغة:

مادة (ض ح و) في العربية كما قال ابن فارس في مقاييس اللغة تدل على: (بروز الشيء ووضوحه، فالضحاء: امتداد النهار، وذلك هو الوقت البارز المنكشف. ثم يقال للطعام الذي يؤكل في ذلك الوقت: ضحاء... ويقال: ضَحِي الرجلُ يَضْحَى، إذا تعرض للشمس. ويقال: اضْحَ يا زيد، أي ابرز للشمس... ويقال: ليلة إضْحِيانة وضَحْياء، أي مضيئة لا غيم فيها... وضاحية كل بلدة: ناحيتها البارزة...الخ). وهي دلالة دقيقة تجمع مفردات المادة، و(ض ح و) ذات صلة بـ (و ض ح)، فالوضوح بروز الشيء وظهوره، إلا أن الفارق بينهما أن دلالة (الضحو) ترتبط غالبا بـ(الضياء)، وترتبط بالوضوح الحسي.

ومن ثم فـ(الضحى) في العربية لا يقتصر معناه على الساعة المعروفة من ساعات النهار، كما هو شائع، بل معناه: ***الضياء البارز الواضح***.

ثانياً: الضحى في استخدام القرآن الكريم:

وإذا تتبعنا استخدام القرآن الكريم للفظ الضحى، فسنجد ما يلي:

أولاً: قابل بين الضحى والليل في قوله (وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى)، وقابل بين العشية والضحى في قوله: (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا). وقابل بين البيات (وهو حدث في

الليل) وبين الضحى في قوله: (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ).

وهذا يعني أن (الضحى) في هذه الآيات مقابل مفهومي لليل، وليس ساعة النهار المعروفة. فالليل هو وقت الظلمة، أما الضحى فهو وقت الضياء.

والقرآن الكريم يقابل بين الليل والنهار، كقوله: (أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا)، (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا)، فقابل بين النهار والبيات، كما قابل بين الضحى والبيات. فالنهار مقابل زمني لليل يقع على ساعاته كلها. وكذلك الضحى معادل زمني للنهار كله، [ولكنه ليس النهار]. والنهار يرتبط بضياء الشمس، يوجد حين توجد، ويذهب حين تذهب.

❖ ❖

ثانيا: ورود الضحى مضافا إلى السماء والشمس.

أضاف الضحى إلى السماء، كما في النازعات (وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا). قال الزجاج: (أظهر نورها بالشمس)، وعند ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أخرج شمسها. وقال الطبري: (وأخرج ضياءها، يعني: أبرز نهارها فأظهره، ونوّر ضحاها). فالخلاصة أن ضحى السماء فسر بـ: الشمس، والضياء، والنور، والنهار. (كما في الطبري). وسأعقب لاحقاً.

وأضاف الضحى إلى الشمس، قال تعالى: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)، واختلف المفسرون في المقصود بضحى الشمس، قال الزجاج

ومجاهد: الضياء، وفسرها مقاتل والسدي: حرها، وقال قتادة: النهار كله.

❖ ❖

ثالثاً: ورود (الضحى) مرادا به الوقت المعروف من النهار، كما في قوله: (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى)، فحدد اليوم والوقت (الساعة).

❖ ❖

رابعاً: ورود الفعل (يضحى)، في قوله: (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى). فالحديث عن الجنة ألا جوع فيها ولا عُري، ولا ظمأ ولا ضَحْو. قال الزجاج: (ولا تصيبك الشمس)، وقال الطبري: (لا تظهر للشمس فيؤذيك حرّها)، وقال الزمخشري أن المراد بالنفي إثبات ضده، فالمعنى أنك تكتنّ في ظل دائم.

❖ ❖

□

ثالثاً: التحقيق في مفهوم الضحى:

مما سبق، يمكن القول أن (الضحى) مفهوم دلالي يرتبط بعنصر: الضياء، فالضياء يكون فيه وضوح الأشياء وبروزها. والضياء كما بينت في بحث (الظلمات والنور) يجمع بين عنصري: الحرارة والضوء، فهو يُحْدث النور ويحدث الحرارة أيضاً. والقرآن الكريم يبين باطراد أن الله جعل الشمس ضياء. فقوله هنا (والشمس وضحاها) يعني: وضيائها (وفي الضياء: ضوء وحرارة). ويضعف تفسيره بالنهار؛ لقوله بعد ذلك: (والنهار إذا جلاها)، فلا يستقيم التفسير لو قلنا: والشمس ونهارها، والنهار إذا جلاها.

ومقابلة الضحى بالليل، والليل هو وقت الظلام، فالضحى هو وقت الضياء، سائر النهار، بل أطلقت العرب على الليالي المقمرة: ضَحْيانة، فوصفتْها بالضَّحْو، وذلك دلالة على أن الضحى: الضياء. وتخصيص بعض وقت النهار بالتسمية (وقت الضحى) لأمرين أنه أشد أوقات النهار إضاءة، وأشدها حرارة.

وأخرج ضحاها:

وقوله تعالى: (وأغطش ليلها وأخرج ضحاها)، يدل على أمر آخر إضافة إلى ما سبق، وهو أن الضحى لا يكون إلا بعد ليل. فقوله (وأخرج ضحاها)، أي: أخرج الضحى من رحم ذلك الليل البهيم، ويدل عليه أيضا الآيات السابقة التي تقرن بين الضحى والليل، أو الضحى والبيات. فالدلالة بين الضحى والليل دلالة تضايف، لا يفهم أحدهما إلا بالآخر، كالعلاقة بين (الأب والابن)، فلا يسمى أحد ابنا،

إلا ويفهم منه أن ثمة أبا له. وهكذا فلا يطلق: الضحى إلا ويفهم أن ثمة ليلا له.

❖ ❖

لا تظمأ فيها ولا تضحى:

وقوله تعالى: (وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى)، أي: لا تتعرض للحرارة، ولا للضياء، بل تكون في ظلال دائمة لا حر ولا قر، ولا ظلام ولا ضياء. فالجنة لا شمس فيها، كما قال تعالى: (لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا)، وأهلها في ظلال دائمة (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ).

ونفي الضحو في الجنة، يبينه ما قلته أن دلالة الضحى إضافية بالنسبة لليل، فالجنة لا ليل فيها ولا نهار (ضحى)، فهي حالة خاصة لا علاقة لها بالمفاهيم الزمنية التي في الدنيا، ولا بالتعاقب الزمني، ولا الحالات الطبيعية الناشئة عن هذا التعاقب من حرارة وبرودة، ومن ضياء وظلام، ولا الحالات الجسمية الناشئة عن ذلك كالنمو والهرم، ولا الحالات النفسية من خوف أو أمن، أو فرح أو حزن....

فالأمن في الدنيا مثلا، هو أمن مرتبط بمخاوف كثيرة، وسعي الإنسان إلى الحصول على الأمن من تلك المخاوف، ويظل أمنا نسبيا، مرتبطا بأضداده. فهي حالة تفهم بضدها، وهو الخوف. أما الأمن في الجنة فهو مختلف عن ذلك، فلا يرتبط بخوف مطلقا، بل هو حالة مطلقة خاصة، لا يمكن للإنسان تصورها في الدنيا؛ لأن تصوره يرتبط بأضدادها. بينما هي حالة مطلقة في الجنة. وكذلك

الحالات الأخرى، كالفرح والرضا...

كما أن نفي الجوع والظمأ والخوف والحزن ... عن أهل الجنة، لا يمكن تصوره على حقيقته المطلقة؛ لأن تصوره في الدنيا يرتبط بضده. وعلى ذلك يمكن فهم الآية. والله أعلم.

❖ ❖

خلاصة المفهوم:

فالخلاصة أن الضحى إذا أطلق فإنه يدل على: ***الضياء المنبعث بعد ظلمة***، فكأنه أُخرج من رحم ظلمة الليل البهيم، وهو أول ضحى كان في السماء (وأخرج ضحاها). وإذا قيد فإنه يدل على ما قيد به، كالوقت المعروف، أو الدلالة على البروز (ويرتبط بالبروز الحسي، نحو: ضاحية البلد).

□

المطلب الخامس: الحبك (ذات الحبك):

أولاً: مفهوم (الحُبُك):

قال ابن فارس في مقاييس اللغة أن المعنى الأساس للجذر هو: (إحكام الشيء في امتداد واطراد). وهي عبارة اشتملت على مجموعة خصائص دلالية في مفهوم (الحبك)، وهي: طبيعة الحبك (الشدّ)، وطريقته (الامتداد والاطراد).

إلا أن العبارة ينقصها عنصر أساس، وهو أن الخطوط تكون متكسرة، وقد ذكر ذلك الفراء كما في الصحاح: (الحُبُكُ تكسُّرُ كل شيء، كالرمل إذا مرت به الريحُ الساكنة، والماءِ القائم إذا مرّت به الريح).

وبذلك يمكن الوصول إلى المعنى الأساس لجذر (ح ب ك)، وهو: ***خطوط ممتدة متناسجة محكمة***.

وهذا التعريف يشتمل على خصيصتين دلاليتين أساسيتين، في مفهوم (الحبك)، وهما:

(١) بنية الحبك، فالمادة المحبوكة: خطوط ممتدة، غير مستقيمة، بل متناسجة، أيا كان شكل النسيج، والخطوط النسيجية عبارة عن ألياف يتم غزلها، فتكون مبرومة لولبية.

(٢) طبيعة الحبك: الشدّ. (فهي محكمة). والشد المحكم، يقتضي الجودة في تضفير الخطوط، ونسجها.

وكافة استخدامات اللفظ تعود إلى هذه المعاني، ويمكن تلخيصها في مفهوم "الحَبيكة"، فكل خطوط ممتدة منسوجة محكمة، تسميها العرب: حَبيكة، وجمعه: حُبُك.

ومن ذلك: ضفائر الشعر، وطرائق الرمل، (وهي آثار مرور الريح على الرمل، فتصنع خطوطا طويلة متكسرة تشبه النسيج)، وكذلك طرائق الماء (آثار الريح على الماء). قال زهير بن أبي سلمى، يصف ماءً:

مُكَلَّل بعَمِيم النَّبْت، تَنْسُجُه ريحٌ خَرِيقٌ، لِضاحي مَائِهِ حُبُكُ

الريح الخريق، هي الريح الشديدة، فهي تنسج وجه الماء حين تمر فوقه فتترك آثارها فيه، فتلك الحُبُك، كأنها طرق لولبية.

وتسمي العرب الكساء المنسوج المخطط: محبوكا، (في اللسان: حَبَك الثوبَ: أجاد نسجه وحسّن أثر الصَّنْعة فيه، وحبك الوَتَر كذلك)، ونقل في الصحاح عن ابن الأعرابي: (كل شيء أحكمته وأحْسنْتَ عملَه فقد احْتبَكتَه)، والمقصود: كل شيء ذي خطوط طويلة، فالحبك ليس مطلق الإحكام. وعبارة مقاييس اللغة أدق، قال: (كساء مُحَبّك، أي: مُخَطّط)، فلا يوصف الشيء بالحبك إلا بمراعاة معنيين، الأول: الشكل، أن يكون ذا خطوط ممتدة منسوجة، والثاني: العلاقة بين هذه الخطوط: الشد بإحكام وإتقان.

كذلك تجد الدقة في قول ابن الأثير في النهاية: (وَمِنْهُ الْحَدِيثُ فِي صِفَةِ الدَّجَّالِ «رأسُه حُبُك» أَيْ شَعَرُ رَأسِه مُتَكَسِّر مِنَ الجُعُودة، مِثْلُ الْمَاءِ السَّاكِن، أَوِ الرَّمْل إِذَا هَبَّتْ عَلَيْهِمَا الرِّيحُ،

فيَتَجعَّدانِ ويَصيرَان طَرَائقَ).

وبهذا يمكننا فهم جميع استعمالات (حبك)، ويمكننا تصويب بعض عبارات المعاجم، فمثلا: (الحِباك)، عرفه ابن دريد في جمهرة اللغة: (أَن يجمع خشب كالحظيرة ثمَّ يشد فِي وَسطه حَبل يجمعه فَذَلِك الْحَبل الحباك). أما عبارة الأزهري في تهذيب اللغة: (رِبَاطُ الحظيرة بقصبات تُعَرَّضُ ثمَّ تُشَدّ. تَقول: حَبَكْتُ الحَظِيرَةَ كَمَا تُحْبَك عُرُوش الكرْم بالحِبَالِ.) فعبارة الأزهري أدق وأدلّ، وقد اشتملت على الدلالتين الأساس. فوصف الرباط بأنه قصبات (وهي: خطوط ممتدة)، (تُعرَّض ثم تشد): فهي قصبات تتداخل، وتشد بإحكام، كما تحبك عروش العنب.

وفي ضوء هذا يمكننا فهم قول العرب: (احتبك الرجل)، في جمهرة اللغة: (تحبكت الْمَرْأَة بنطاقها إِذا شدته فِي وَسطهَا. وَكَذَلِكَ تحبك الرجل بثيابه إِذا تلبب بهَا. واحتبكت إزَارِي إِذا شددته عَلَيْك). وفي اللسان: (احتبك بإزاره: احتبى به وشده إلى يديه). فالمحتبك عادة ما يشد إزاره بنطاقين متداخلين، حتى يعتمد عليه، ويجعله كالمسند لظهره، فلو كان النطاق خطا واحدا لما أمكنه الاستناد عليه إلا إذا كان عريضاً بحيث يشمل مقدمة الساق من الركبة إلى أسفل الساق. فسميت هذه الهيئة بالاحتباك لأنها اشتملت على دلالتين، الأولى: شكل الرباط الذي يُحتَبَك به، وهو نطاقان يربطان متداخلَين. والثاني: إحكام ربطهما.

❖ ❖

□

ثانياً: البنية النسيجية:

نفهم البنية النسيجية بالنظر إلى النسيج الذي يصنعه الإنسان، والنسيج الذي ينشئه الخالق سبحانه وتعالى، كالنسيج الحيواني والنباتي، وفتائل الذرة.

بالنظر إلى صناعة النسيج فإنها تمر بمجموعة من المراحل، يمكن تلخيصها في ما يلي: (انظر: الموسوعة العربية العالمية)، أولا: تجميع الألياف والشعيرات، وهي تمثل المادة الخام الأولية. ثانياً: غزلها، وذلك بفتل الألياف لولبياً، وتحويلها إلى خيوط مبرومة جاهزة للحبك. ثالثاً: حياكة الخيوط، ونسجها، لصناعة الأنسجة. كما تشمل الصناعات النسيجية: الأصبغة التي تلون الخيوط النسيجية، والمواد المستخدمة في الخصائص الوظيفية للأنسجة... الخ. وإضافة إلى البنية النسيجية فإنه يشمل أداءها ووظيفتها.

(والسماء ذات الحبك)، فحُبُك السماء، تعني أنها تتألف من أنسجة ذات أنظمة نسيجية متعددة. وكل نسيج منها يتألف من خيوط طويلة متينة قوية، وكل خيط منها يتألف من ألياف صغيرة ودقيقة (فتائل). وكل خيوط نسيجية لها خصائصها المتميزة، ومن ثم فهي زينة في السماء الدنيا. وهي مشدودة شدا محكما، متقنا.

وأما النظر إلى النسيج المخلوق، كالنسيج الحيواني والنباتي فإنه يمكن القول إن التركيب النسيجي يتحقق في كل المخلوقات، فكما ذكرتُ في بحث الغيب والشهادة، أن خلق الله يتشابه ولكنه لا يتماثل، كذلك البنية النسيجية (ذات الحبك) تتشابه في كل المخلوقات، ولكنها لا تتماثل، فلكل بنية نسيجية نظامها الخاص بها.

ويمكن الوصول إلى وصف أدق للبنية النسيجية السماوية من خلال دراسة البنية النسيجية للخلايا النباتية، والحيوانية، ولفتائل الذرة....

فالنسيج (سواء الحيواني أم النباتي)، مجموعة خلايا موحدة البنية والوظيفة، وترتبط الخلايا بعضها ببعض في وسط مادة هلامية. (انظر: الموسوعة العربية)، وكل نوع من الأنسجة له بنية تناسب وظيفته. فتتعدد بنى الأنسجة وأنماطها بحسب وظائفها المختلفة. ولهذه البنية النسيجية خواص عديدة، كالنمو والتطور والمرونة، والموت والحياة، والصحة والمرض... الخ.

فالسماء ذات الحبُك، أي: ذات البناء النسيجي، مثلها مثل سائر المخلوقات (الحيوانات والنباتات وغيرها) كلها ذات بناء نسيجي. فخلق الله يتشابه ولا يتماثل، تشابُهُهُ في أنه يخضع للأنظمة نفسها، وعدم تماثله في أن كل مخلوق يتفرد بصفاته الخاصة به (سواء أكان المخلوق على مستوى الجنس أو النوع أو الفرد)، قال تعالى: (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)، أي: ما ترى فيه اختلافاً، فبعضه يشبه بعضا، فهو خلق متشابه. [راجع بحثي: الغيب والشهادة في القرآن الكريم].